مقاربة الأبد

مجموعة قصصية

جمال الغيطانى



89
G4

مقاربة الأبد

مجموعة قصصية

تأليف

جمال الغيطاني





اسم الكتاب	مقاربة الأبد (مجموعة قصصية)
اسم المؤلف	جمال الغيطانى
إشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	يناير ٢٠٠٠ م .
رقم الإيداع	٣١٠٩ / ٢٠٠٠ .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1231 - 0
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .

أوقـــــات

مامن علامة تنبىء ، أتمدد مستغرقًا فى القراءة ، أنعم بالضوء المستقر ، ومحاولة استيعاب الأفق عبر الواجهة الزجاجية ، ليست نافذة ، إذ تمتد بعرض الجدار ، بطول الغرفة .

شريط لاصق مستطيل ، أبيض . بروز خفيف ، شريط آخر ناحية الجانب الأيسر ، منه يخرج سلك متصل بجهاز صغير مربع ، أعرف أن قلبى متصل بالجهاز المعلق إلى يمين الغرفة ، أراه عند اجتيازى المسافة القصيرة ، إلى الحمام ، تمتد الخطوط ، بعضها مستقيم ، وآخر متعرج ، أرقام . لم أحاول التوقف للاستيعاب ولم أستفسر ، كنت متقبلاً كافة ما يحيط بى ، أو ما يصدر عنهم ، أستسلم لأى فحص ، وأجيب بدقة ، لا أخفى من أمرى شيئاً ، ولا يدركنى فضولى القديم .

أصغى إلى الخلوة ، وأنتظر قدوم ماجدة ، كانت تحرص على الحضور فى أبهى صورة ، تمضى الوقت ، تعيد ترتيب الأشياء ، أطلب منها ما يخجلنى صدوره عنى تجاه الممرضة .

أتوقف لحيظات لأتطلع إلى اللاجهة متشحًا بالشجن الشفيف ، باعثه وهنى ، ورضاى عما تم وجرى ، وإن كنت أمر بالساعات التى لايغيب فيها حالى عنهم ، اعتدت الخفقات المفاجئة ، لم تنتظم الضربات بعد ، قلبى ينظم وضعه ، يرتب أموره .

أصغى إلى ما يجرى داخلى ، أعيه لكن ليس بوسعى شىء ، هذه الشاشة المعلقة مجرد نسخة ، فيما بعد علمت أن عدة نسخ موزعة على الأقسام المختصة ، ترقب أحوال قلبى ، فيما بعد بدا لى ماجرى أول مرة مبررًا . .

اجتازت الممرضة الباب ، من ملامحها أدركت أن أمرًا جرى ، لم أجد داخلى ما يبرر جزعها البادى ، تطلعت إلى الشاشة ، أمسكت معصمى ، إنها أجمل من يتعاقبن علىّ ، تمشى على أطراف أصابعها ، الصلة ما بين شفتيها وعينيها منعشة ، باعثة .

توقفت عن القراءة ، رفعت بصرى عن سطور موبى ديك ، ولجت حالة الانتظار ، ومنيت نفسى بفرصة أكتب فيها عنوانى فى القاهرة ، لعلها تأتى يومًا ، اجتاز الباب ثلاثة ، طبيبان ، أول من يقدمان لزيارتى فى الصباح الباكر ، أحدهما قصير عيناه لونهما فيروزى ، مبتسم دائماً ، الآخر طويل ، يشبه زميلاً لى فى المدرسة الثانوية ، كان اسمه زاهر ، يسكن إمبابة ويميل إلى امتلاء ، الثالثة الحكيمة البدينة . لكنها لم تكن مبتسمة .

أحاطوا بى . فكت البدينة الرباط الذى يشد الرداء المفتوح من الخلف ، جذبته فاكتمل عريى أمامهم ، لم يحدث أى رد فعل منى ، لم أمد يدىّ لأستر مابدا منى ، حركة تلقائية اعتدتها إذ أجد نفسى فى هذا الموقف غصبًا ، حدث مرة واحدة ، فى معتقل القلعة ، عندما عصبوا عينىّ وجردونى تمهيداً للتحقيق . عندما انهال الصفع والعصى النحيلة والغليظة لم يحل الألم دون وضعى المنحنى الساعى إلى إخفاء قضيبى وخصيتىّ .

الوضع بالطبع مغاير ، هذه المرة لا أعبأ ، مستسلم ، متهيئ تماماً كما جرى عندما وضعونى على مقعد متحرك واندفعوا بى من ممر إلى ممر ، ومن مرصد إلى آخر حتى وصلوا بى إلى غرفة أشعة ، جهاز معقد فى مكان قصى ، معزول ، يذهب إليه المريض ، تجردت

من ثوبى . وقفت عاريًا تمامًا فى مواجهة طبيبة شابة ، هيفاء ، ناعمة النظرة ، ضمنا حيز ضيق ، ضبطت المفاتيح والأزرار وطلبت منى التنفس بعمق ، فلم أنشغل إلا بالتلبية وتنفيذ ما أؤمر به على أفضل صورة .

هذا ما صرت إليه هذه المرة ، ضغط أزرق العينين الزر الخاص بوضع الجزء المتحرك من السرير ، تراجع إلى الخلف ، صرت مستلقيًا تمامًا ، حدقت البدينة فى وجهى ، قرّب شبيه زميلى القديم جهازًا ، أحاط معصمى بما يشبه الرباط الجلدى ، تطلعوا كلهم إلىّ ، مررت بالنظر عليهم ، لم يصدر عنهم أى رد فعل ، كانوا بانتظار شئ ما لا أعرف ماهو بالضبط ، أعتدت ألا أستفسر ألا أسأل ، مع إننى قبل العملية كنت وعر الفضول ، دائم المقارنة ، لا أكف عن استدعاء اللحظات والملامح والنطق بالملاحظات ، بعد عودتى ، بعد اكتمال إفاقتى ، تبدل الأمر ، صرت مكنونًا ، أتابع ولا أعلق ، أرى ولا أقارن ، أصغى ولا أجادل ، فى حالة من السكون الراضى ، متهيئ لكل طارئ ، غير دهش لوقوع المفاجئ .

لم يقلقنى وقوفهم ، مرور تلك الدقائق البطيئة ، تطلعهم إلى الجهاز مرة ، وإلى الشاشة المعلقة مرة ، فقط مال الشجو بى ناحية النافذة ، وطغت رغبة قديمة فى استحضار الدمع ، ذلك أنى كنت مدركاً بتعجب ودهشة السرعة التى انقضت بها الأوقات . .

استبيان

عندما نودى علىّ عبر مكبر الصوت خافت الدرجة ظننت أننى ملاق الطبيب، لكن المرافقة المصرية الأصل، مرحة الملامح والصوت قالت إنه سيرانى فى الخامسة بعد الظهر، أما الآن فأول خطوة. من سنقابلها إحدى المساعدات، مختصة بإعداد استجواب دقيق. إنها أقل من طبيبة، وأرفع من ممرضة، هذا نظام لايوجد إلا هنا، يلى ذلك تسليم فيلم القسطرة، والكشف على الأسنان، سلامة الفم مهمة جدًا قبل العملية، التأكد من بعض التحليلات، إنه أطول يوم، قالت ضاحكة . . «**كعب داير يعنى..**»

بدا لى التشبيه غريبًا فى هذا المستشفى البعيد جدًا عن ديارى، نفحة من أيامى المتوارية. القصية عنى الآن. المستحيل بلوغها علىّ، بلغت نقطة يتساوى فيها عندى استدعاء لحظة فاتت بأخرى آتية. الشتاء الماضى، لحيظات الغروب القاهرية. الشتاء المقبل، أويقات هبوب النسمات الباردة قبل نزول الليل، ما قبل الغروب، الربيع الذاهب، المقبل . . لا فرق، كنت متقبلاً لكل أمر، ملبيًا كافة ما يطلب منى، متعجلاً لحظة الفصل، مكتمل الوعى بساعات إعدادى وتجهيزى، مقبل على البشر كافة بنفس القدر، مستدعيًا من عدمى أكثر مما أراهم أمامى. من يسمعون لفظى، ويهتمون بشأنى، كنت فى الفائت أكثر مما أنا عليه فى الحاصل. غرفة صغيرة، معدة للمواجهة وليس للكشف أو الفحص، مقعدان فى مواجهة بعضهما. وحدة واحدة، متصلان منفصلان، مقعد ثالث لجلوس المرافقة، تترجم

ما يسر عليّ أو عليها ، لم يكن ثمة مكان لرابع ، لذلك جلست زوجتى فى قاعة الانتظار على مقربة .

عندما دخلت الغرفة ، نشطة ، حية ، أجاجة ، نضرة ، لم تُحدث منى ما يثيره ظهور الأنثى ، من حركة زائدة ، هكذا قال شيخنا ابن حزم فى مؤلفه طوق الحمامة ، أدرك هذا منذ اكتمال وعيى ، ظهورهن مبدل للظرف ، مغير للأحوال . دافع ليعرض المرء أفضل ما عنده ، مجرد عبور مجهولة لى الطريق يثير ويبدل .

إنها فارهة . لا يبدو تعبير معين من خلال ملامحها ، تؤدى عملها بحيادية متقنة ، جميلة ، تسأل شفاهة ، وتدون إجاباتى على أوراق مسندة إلى لوح مقوى ، معدنى .

جمال الغيطانى ، مولود فى التاسع من مايو عام خمسة وأربعين وتسعمائه ألف ، فى قرية جهينة ، مركز طهطا ، مديرية جرجا ، سوهاج الآن .

تتساءل بتقطيبة خفيفة من حاجبيها ، أنتبه إلى لون عينيها ، تلك الزرقة الصافية ، قلت إن اسم المقاطعة تغير .

كتبت ، وإن لم تبدد إجابتى حيرتها .

نعم . . اثنان قبلى توفيا ، الأول اسمه خلف ، قبل ولادتى ، الثانى كمال ، توفى على زراع أمى عند مدخل حارة درب الطبلاوى أثناء عودتها به من عيادة طبيب فى ميدان بيت القاضى .

لا . . لا أعرف كيف رحل الأول ، لكن أمى قالت إن كمال

ظهرت تحت أذنه اليمنى بقعة حمراء مصحوبة بسخونة ،لم ينفع الدواء ومن قبله الحجاب . . الحجاب يتضمن كتابة خاصة للشفاء من المرض . نعم . . أقرب إلى السحر .

لست متأكدًا من عدد المتوفين بعدى ،لكننى أذكر جيدًا محمد ، وُلد بعد إسماعيل وقبل شقيقتى نوال . نعم . . هذا اسم أختى . محمد مرض بعد عودتنا من جهينة . كنا نسافر إليها فى الصيف . أذكر جيدًا سلساله فى الإعياء ، هزاله ، موته قبل طلوع شمس يوم الجمعة ، مات فجرًا ، تماماً كما رحل أبى فجرًا ، أيضاً أمى . .

بالنسبة لأبى لم تكن أى مقدمات ،لم أشهد احتضاره لسفرى ، سمعت ما جرى من أشقائى وأقاربى ، الأمر غريب . لأول مرة أحكى تلك الليلة ، لم أعشها ،لكننى سمعتها . عاد فى العاشرة بعد جولة زار خلالها ضريح سيدنا الحسين .

إنه مرقد مقدس . نعم . . أنا أقدسه أيضًا . حوالى الثانية بدأ يسعل . كان شقيقى ينام فى الغرفة المجاورة ، ضابط مهندس ، يستيقظ مبكرًا ، فى البداية حاول ألا يحدث ضجة حتى لا يوقظ أحد ، لكن عندما تزايد الأمر ، انتبه أخى ، استيقظت أمى ، واختى ، وأخى الأصغر ،لم يكن سعالاً عاديًا . بل حشرجة . وعندما مثلوا حوله ، تطلع إليهم ، كان واعيًا ، منتبهاً خاطبهم قائلاً :

«سامحونى..»

أكف ، أدرك فى هذه اللحظة . الآن بعد ستة عشر عاماً أن الحبيب القريب ، المغترب الآن ، رحل نتيجة أزمة قلبية ، كثيراً ما رددت شكرى لرحمة ربى به ، لم يستغرق احتضاره إلا ثوان معدودات ، كان انتقاله يسيراً ، فلم يعرف الشيخوخة المعطلة . أو التقدم فى العمر المؤدى إلى العجز ، أن يصير المرء عبئاً على الأقربين ، كثيراً ما تمنيت نهاية مشابهة ، لم أنتظر هذه الآلام ، تسأل

«والأم..»

رغم أننى لم أشهد اللحظات ، إذ وصلت بعد فوات الأوان ، إلا أن رؤيتى لآثار النزع ، وإفضائى بما وقع عليه بصرى إلى طبيب صاحبى ، بصرنى بما جرى ، قال إنها أزمة قلبية مفاجئة . .

«هل كانت ثمة أمراض..»

بالنسبة لوالدى لا أعرف ، كان جلدًا ، حمولاً ، يعتبر الذهاب الى الطبيب ترفاً ، لكن أمى كانت تعالج من السكر والضغط المرتفع وتصلب الشرايين ، اكتشفت السكر بعد خروجى من المعتقل .

لا أعرف تاريخ ميلادها

فى صعيد مصر ، كانوا لا يبلغون عن المواليد أحيانًا . .

الإناث بالتحديد ، لكن تقديرى . . أنها من مواليد عام ثلاثة وعشرين ، مجرد إحساس . ليس من دليل . .

نعم . . احتمال أن يكون تاريخ مولدى غير مؤكد .

لا . . ربما مجرد أيام . . ربما . . لست متأكدًا . .

نعم ، الصداع النصفى . أظن أننى وُلدت به ، أقدم آلامى ، تسبقه ظهور نقطة بيضاء .

أقدم نوبة ترتبط بطفولتى . ربما كان عمرى خمس أو ست سنوات . كان الألم شديداً ، بدأ بعد تلك النقاط شديدة اللمعان ، تبدأ نقطة نحيلة ، فى مواجهتى لكن لا موضع محدد لها ، بعد لحظات تتصل بأخرى ، تتسع لتصبح بقعًا من ضوء فتاك يحجب عنى الرؤية . شيئاً فشيئاً يبدأ فى االإنحسار بينما يسرى الألم ، يثقلنى يهدنى هدًا . .

نعم . نعم . صحبتنى جدتى إلى المقدس قيصر فى حارة النصارى ، كان تاجرًا للأقمشة ، لكن عُرِف عنه قدرته على مداواة الأوجاع والآلام ، أصغى إلى ما قالته جدتى نيابة عنى ، وصفها لما تراه منى ، وضع يده على جبينى .

ثم تلا تعاويذ وتمائم ، قام إلى غرفة داخلية عاد منها بعجينة من البن على طبق صغير مسطح ، سواها مرتين قبل أن يلصقها بجبينى . وطلب ألا أفتح عينى إلا بعد زوال الألم . .

كثيراً ، أحياناً بمعدل ثلاث مرات فى الأسبوع ، لكن انقطع لمدة عشر سنوات بعد بلوغى الثلاثين ، ربما أكثر فى السنوات الأخيرة يعود على فترات متباعدة ، الألم أشد ، لا تستغرق النوبة إلا ثلاث أو أربع ساعات ، لكن يظل دماغى مثقلاً لأيام !

لم أعرف أننى مصاب بضيق وارتجاع فى الصمام الميترالى

إلا صدفة . كان ذلك عام ثلاثة وسبعين ، شعرت بأعياء لا أذكر سببه ، الطبيب كان حاذقًا ، أصغى عبر السماعة ، سألنى عما إذا كنت أصبت بالحمى الروماتيزمية ، قلت أننى لا أعرف .

لم أكن أعرف فعلاً .

أظن جرى ذلك عام ستة وخمسين ، ما يشبه الإبر زرعت صدرى ، طبيب المدرسة أمر بصرف حبوب حمراء ، سلسلات ، لكننى رقدت فى البيت حوالى أربعة أيام . كما أذكره ألام صدرى . .

لا . لم أذهب إلى مستشفى . مجرد التفكير فى اللجوء إلى الطبيب كان نادرًا . بدأت الألام منذ شهرين ونصف

عكمة يليها انتشار حرقان فى صدرى . عولجت أولاً على أنه ثقب فى الحجاب الحاجز . .

عادى . .

أول أنثى عرفتها بعد الثانية والعشرين ، بالتحديد فى الثالثة والعشرين نعم ، دخنت النرجيلة والسيجار ، حوالى ربع قرن ، لا . . ثلاثين عامًا ، ربما أكثر قليلاً ، توقفت بعد ظهور العكمة . .

لا أشرب إلا نادرًا . عند سفرى .

النبيذ فقط . البيرة أحياناً

أنام يوميًا حوالى خمس أو ست ساعات .

أستيقظ مجهداً لأننى أنام متأخرًا . أذهب إلى مكتبى ، أعود إلى البيت ، لابد من إغفاءة بعد تناول الغذاء ، أقوم لأبدأ يومى

الخاص ، أقرأ ، أكتب . .

لا . .

أحيانا أمشى ، لكننى فى السنين الأخيرة بعد أن خصصوا لى عربة لم أعد أمشى تقريبًا . .

أحيانًا . . إن ضغط اليوم شديد . .

أقابل زوّاراً كثيرين ، أتحدث طويلاً ، الكلام يرهقنى . .

جدتى ؟ كانت مريضة بالسكر . .

اكتشفنا مرض أمى بالسكر عام سبعة وستين .

لا . . لم يغمى علىّ قط . لم أفقد وعيى . .

بعد صعودى حوالى ست أو سبع درجات يبدأ وهنى . .

لم أشعر بشئ من هذا . .

اثنان . محمد فى العشرين ، وماجدة فى السادسة عشرة . .

شَـــــفَا

لم يستطع استيعاب مكوناتها المكتوبة بحروف دقيقة بيضاء ، كلمات ، مصطلحات مبهمة ، سطور متقاربة ، كسور ، أما السائل فيقع لونه بين بنى غامق وأحمر صريح به مس من لون السماء فى يوم صيفى صحو خلو من أى غمام .

أين ؟

متى ؟

متى طالع هذه المساحة من اللانهائية ؟

لا يمكنه التحديد الآن ، تتقارب اللحظات المندثرة ، تندغم ، تتلاشى حوافها تنصهر فى بعضها البعض فلا يلوح إلا معانى وإشارات مصاحبة لشظايا وقت تفد عليه بصعوبة .

يمسك العلبة الأسطوانية الزرقاء ، لم يعرف مثل تلك الرائحة فى أى نوع من الصابون الجامد أو السائل ، تمثل فى أفق وعيه الآن صابونة ملساء ملفوفة فى ورق ناعم ، تحكمه وتلصقه قطعة مشرشرة الحواف ، خضراء ، كتابة فضية .

«نابلسى شاهين»

صابون معجون بزيت الزيتون ، تطل العلامة بقوة الآن ، ناصعة ، تلغى ماعداها ، معلقة ، دالة على حقبة ومرشدة إلى فترة لم يعد باقياً منها إلا صدى .

يحكم إغلاق الباب ، الحمام مستطيل ، بمفرده تماماً . العاشرة والثلث ، لايعرف أين سيكون فى مثل هذه اللحظة من الليلة القادمة؟ ، إما فى غرفة العناية المركزة بعد انتهاء العملية ، أو ملفوفًا

فى قماش متين ، محقونًا بمادة ما فى انتظار التصرف بما تقضى به الأحوال ، لم يهمل تلك النقطة ، كتب مايجب أن يتبع لزوجته المنتظرة الآن خروجه .

الآن . . العاشرة وثلاثة وعشرين

غدًا صباحًا فى الحادية عشرة يجب أن يسلم نفسه إلى قسم التجهيز ، لكن الإعداد الفعلى يبدأ الآن ، تهيئة جسده للشق ، للنصال المعقمة الآن فى حيزما من المبنى القريب .

عاد تمامًا فى مواجهة المرآة ، يبسط كفه فوق صدره ، إذا قدر له الرؤية مرة أخرى فلن يشهد الوضع هكذا ، أثناء جلوسه فى البهو منذ وصوله بعد مغيب كل يوم ، إصغائه إلى من سبقوه وعادوا لقضاء فترة النقاهة قبل سفرهم النهائى ، كان يتطلع خلسة إلى الجرح الملتئم الصاعد من أسفل إلى ما قبل الحنجرة ، عند التقاء الترقوتين . يسترجعون ماجرى ، يحكى كل منهم ما مرّ به ، يستعيد الحوارات والملاحظات ، تتخلل كلماتهم طلات فرح وبهجة سارية ، لم يقصر كل منهم فى طمأنته وإبداء النصح والإفضاء بخلاصة الوضع .

هل سيجلس مثلهم ويقص ماجرى ؟

إنه هادئ تمامًا ، كأنه يرقب نفسه من مسافة لايقدر على تعيينها ، يتجرد من الساعة ، يسندها فوق الرف الزجاجى ، شعر صدره سيحلق صباحًا ، لن يقترب منه ، لابد أن لهم طريقة خاصة ، لكنه سيزيل شعر العانة رغم بعده عن موضع عمل الجراح .

موضع عمل ؟

يبتسم متأسياً . فتح صدره والوصول إلى قلبه المتوارى فى موضعه الدفين بالنسبة للآخرين مهمة ، عمل ، شغل ، على مهل يبدأ . . لم يكن كثيفًا ، آخر مرة حلقه منذ ثلاثة أسابيع ، يتحسس نعومة الجلد ، خلو ما يحيط الخصيتين . لايعرف أى فخذ سيأخذون منه الوريد البديل لوصله بالقلب .

إنه راض عن ملاسة جلده ونعومة أسفل البطن ، يتابع انجراف الشعر تجاه فتحة البلوعة المستديرة نهاية الحوض المستطيل ، يتساءل : لماذا يشمئز المرء من نفاياه؟ ألم تكن جزءاً منه ؟ ، لماذا يصر على تهيئة جلده ، وإزالة شعره مع أنهم لم يطلبوا ذلك منه ولم يتضمن الدفتر الخاص بالإرشادات أى إشارة ، بعد أن يفرغ سيقص أظافره أيضاً بعناية ، مبادرة منه ، مبادرة .

يبتسم متأسيًا . يبدأ تدفق رذاذ المياه المنهمر ، يتحول إلى خيوط تتجاور فوقه ، تبلله تماماً ، يتراجع إلى الخلف خطوة ، يتغير إيقاع الماء . لم يعد جسده يعترض الإنهمار المتدفق ، يفتح العلبة بإدارة الغطاء ، يتلقى مقداراً من السائل فوق راحته ، يبدأ برقبته . من أمام ومن خلف . ثم صدره . بمجرد ملامسة الجلد يتحول اللون الغامق إلى برتقالى فاتح ، أغمق قليلا ، لايمكنه التحديد بدقة ، للضوء اعتبار .

يبسط راحته على صدره ، حركة يده دائرية ، صاعدة ، هابطة ، ينتقل إلى ذراعيه . ما تحت الأبطين ، بطنه ، لسعات خفيفة عند

العانة المحلوقة ، ما بين الفخدين ، الركبتين ، الساقين ، ينحنى متخللاً ما بين أصابع القدمين .

إذ ينحنى مغموراً بالماء الدافىء تتغمغم المرثيات ، تتداخل الأبخرة واللحظات العالقة ، أمه أصباح الجمع إذ تصب الماء وتدعك ظهره باللوف المغمور فى الصابون ، يستسلم تماماً ، مع تقدم العمر لم يتوقف حتى الثالثة أو الرابعة عشر عن استدعائها لتطول بيديها مالا يمكنه الوصول إليه

«أدعكى لى ظهرى..»

لم يطلب ذلك من زوجته قط ، أو أى انسان آخر . بل إن لحظات الحمام من أشد أويقات وحدته ، بحكم إغلاق الباب ، أبخرة ، حواف ضبابية يصعب التعلق بها ، قاعة مستطيلة تنز قدمًا ورطوبة ، المواسير ممتدة تحت السقف مباشرة تتخللها الفتحات تصب الماء صبا على الأجساد العارية . المرة الوحيدة المتاحة للإستحمام بالماء الساخن كل أسبوع فى المعتقل النائى ، ينتفى الخجل من العرى كأنه يرى جسده الآن من خارج ، يحيط به من أعلى ، من فوق ، من سائر الجهات ، تماما كما تفد عليه شظايا أوقاته المندثرة كأنها تمت إلى شخص آخر . يرفع ذراعه اليمنى ، يدعك الثنايا ، يبدل الوضع ، بقدر مايدعك جيدًا بقدر شرب السائل عبر المسام ، ينفذ إليه كرائحة أيضًا . مرة أخرى يصعب عليه تحديد مرجعية معنية .

لا يتذكر أين ومتى قرأ نصوصًا عن الاستحمام ، وأفضلية البدء بالرأس« لأنها أشرف» .

يبتسم ، ولماذا لايبدأ بالسفل ، هل يقوم الفوقى بدون التحتى ، ماذا يعنى ذلك ؟ لماذا يبتسم ؟ ربما لتوارد مالم يخطر بباله خلال تلك اللحظات ، مايمر به الآن مغاير لكل ما عرفه . لكنه يتوقف عند لون المطهر ، ويحار ، يتابع البخار المتصاعد ، المتكاثف على سطح المرآة .

تقترب أصابعه بحذر من وجهه . التحذير واضح ، مرة أخرى يعود إلى الرقبة ، تتحرك أصابعه بسرعة ، يكاد يرصد الآن تسرب السائل ، يدرك نفاذه إلى داخله ، يدفع به إلى شفا .

نثـــــــار

أحاول أستيعاب مايقع عليه بصرى . ما أراه الآن ربما لن أعود إليه . المكتب . الصور المعلقة إلى الجدران ، لوحة تثبت مشهدًا من الجمالية أو توحى به ، النافذة العريضة ، الأفق المفتوح الممتد ، كثيرا ما توقف ضيوفى القادمين من الخارج ، اتجهوا إليه مباشرة ، اتبعوا فضولهم باستفسارات شتى ، تتوازى رغبتى فى البقاء فترة أطول مع المكان الذى أحتوانى سنيناً مع حرصى على الأسراع بالمغادرة ، الوقت المتاح قصير ، وما أرغب فى إنجازه كثير ، إضافة إلى الضرورى .

فتحت درج المكتب ، أقلب محتوياته بسرعة ودقة ، أحتفظ فيه بالخطابات الحساسة ، تلك المتصلة بعلاقات قديمة ، أو مودات ذبلت لكنها تتردد بين حين وآخر كأصداء ، عناوين أصدقاء هنا أو هناك ، أرقام هواتف ، بعض صور تعد مرجعية للحنين والطواف بلحظات مندثرة .

غدًا أتأهب فى مثل هذه اللحظة للسفر بعد أن أعددت الأمر كله وتكيفت وصرت متقبلاً لكل احتمال ، بهدوء محايد أحتوى المرئيات وأصفى الأحوال ، طوابع بريد لم أستخدمها . أقلام رصاص ، بطاقات حرصت على الاحتفاظ بها ، يرن الهاتف .

لماذا أرفع السماعة؟ لماذا أبدد وقتًا ثمينًا صرت فى حاجة إليه ، لكننى أخشى الرنين دائمًا . ذلك الحذر القديم من البرقيات ورنين الهاتف ، كلاهما نذير ، أخاف وقوع مكروه ما رغم أنه ناشب داخلى الآن . فى أى لحظة يمكن أن تبدأ المويجات العاكمة .

المؤججة لوقيد ينتشر فى صدرى . لكنها لا تتوالى إلا ليلاً ، هل ثمة علاقة بين اندلاع الألم واستقرار الليل واكتمال عتمته ؟

رنين . رنين .

أرفع السماعة ، يجيئنى صوته من عمق .

هادئ ، معقم ، ذو مستوى خفيف لا يتقلقل ولا ينفعل ، واضح مخارج الحروف ، ألم يعمل مذيعًا محترفًا أكثر من خمس وثلاثين عامًا قبل تقاعده . ولأنه كان مثاليًا فى ولائه وانضباطه وقدرته على المسايرة المحكمة لم تلحق به الإجراءات التى طالت بعض زملائه من أصحاب الأسماء ذات الانتشار ، تكريمًا له تم إسناد مهمة استشارية فى مؤسسة جديدة ذات طابع استثمارى ، يتقاضى العاملون فيها مرتباتهم بالدولار ، ويتحركون فى مبنى يحرسه أفراد من الأمن الخاص ، مكيف نظيف . أخبرنى من زاره أنه يجلس فى غرفة فسيحة يغلب عليها اللونين الأزرق والأبيض . لاتوجد فوق مكتبه ورقة واحدة ، يقول متباهيًا لكل من يزوره إن هذا من علامات حسن الإدارة ، والمسئول الناجح من لا يكدس الأوراق أمامه ، هذا الخلو يعنى أن كافة الأمور جرى البت فيها .

أمزق خطابين حرصت على الإحتفاظ بهما عدة سنوات منذ وصولهما إلىّ على مسافة متقاربة . إذ أتطلع إلى خطها كأنى أصغى إلى أنفاسها . انقطعت فجأة عن التلقى والود . توقفت مدحورًا ، واكتفيت بالاستعادة عبر ما علق بروحى وذاكرتى .

أين هى الآن إذا كانت حية تسعى ؟ ، وكيف تتلقى خبر

اغتـرابى النهـائى لو وصلها يومًا؟ . أسند السمـاعة إلى مـا بين دماغى وكتفى ، يحرر هذا الوضع يدىّ . .

يقول سيادته إنه أدار رقمى بمجرد دخوله الغرفة . لأن ما فكر فيه طوال الليل قرر أن يفضى به إلىّ ، أن أكون أول من يحيط به علمًا .

أمزق دعوتين قديمتين إلى عُرس لم أمض إليـه ، لا أريد أن أدع ما يشير إلى أى تفاصيل تمت إلىّ حتى وإن تلح الآن غير مهمة ، هذه البطاقات من رحلات مختلفة . حصيلة سنوات من الترحال ، ما حاجتى إليها الآن؟ ، لماذا أتركها للفضولين ، ماذا تعنى بالنسبة إليـهم؟ بل . . بالنسبة إلىّ الآن وها أنا مـقـدم على سـفـر بعـد ساعات ، أحتـمـال عودتى منه تماثل اللاعودة ، وحتى لا يُقض مضجعى . وحتى لا ينتفى سُهادى ، انتهيت إلى حال من الرضا بما سيكون وما يجرى ، أقصى ما أنتظره ألا أنتظر شيئًا . لذلك عكفت وأديت وآخر ما تبقى تلك الوريقات ، لكنه لا يعلم ولا أنوى إخباره بشئ . لم ينتبه إلى محايدة نبرتى وردودى الصوتية ، النائية عن اللفظية .

يقول إنه منذ صباه اضطر إلى ممارسة أدوار أكبر من عمره ، سيخبرنى بما لم يطلعنى عليه من قبل ، إنه شريف ، منحدر من السلالة النبوية الشريفة ، ولديه شجرة معتمدة ممهورة بخاتم نقيب الأشراف فى مصر ، وبطاقة تحمل رقم أربعة وأربعين يحتفظ بها فى حافظة نقوده وبطاقاته الحساسة جدًا ، التى تحوى تصاريح بدخول بعض الأماكن السيادية .

بتمهل .

أدقق اسماً أجنبيًا ، من ؟ من صاحبه؟ ، لكن . . لماذا أجهد ذاكرة مرهقة فى الاستعادة وما تستهدفه التقاط التفاصيل الممكنة ؟

يقول إن وفاة والده المبكرة جعلته يرث المكانة المقدسة له ، وهو بعد فى التاسعة ، أصبح مقصدًا للفلاحين والبسطاء من أبناء البلدة ، سعوا للتبرك به ولمسه والحصول على أثاره . وفى المولد يركب حصانًا ، وعلى كتفيه الطيلسان والوشاح ، ومن حوله الزفة والطبل والزمر والدراويش ، إلى أين أدى هذا به ؟

أقطع الخطاب المكتوب على ورق أزرق اللون ، ورد إلىّ صباح يوم من رئيس مجلس الإدارة يخبرنى فيه بقرار جماعى يقضى بترشيحى مندوبًا عن المؤسسة ، مندوب لماذا ؟ وأين ؟ أقرأ الرسالة مرة أخرى . . ياه ، هل من المعقول أن أنسى ؟ أذكر بئرًا عميقًا فى دير قبطى قديم ، لماذا قصدته ؟

يقول إنه انقطع عن اللعب مع أقرانه ، ذلك أن تصرفاته من صورة . فكل ما يبدر عنه أو يصدر منه يتم تأويله أو تفسيره ، كل حرف لكم ضاق بذلك ، لكم تمنى أن يتسلق شجرة أو يركب حمارًا بالمقلوب أو ينزل الترعة ليغطس بعض الوقت ، لكنه لم يفعل . لم يتمايل فى خطوه ، لم يسرع .

آه . . تطل من جديد ، من خلال صورة نادرة كنت أخشى التطلع إليها ، ذلك أن مجرد النظر إليها يجهد قلبى ، لكنه معطوب

الآن ، واستجاباته مقيدة بأدوية مهدئة وعقاقير سارية حتى يرسو عند اللحظة التى يطاله فيها مبضع الجراح ، كيف سيبدو لمن سيراه بعد شق الصدر وارتفاع الحجب؟ ، رغم كل شئ ، وإدراكى المحاذير أوشك على ذرف دمعة ، هذه الصورة فى ساحة المبنى الذى يشغله الاتحاد ، شتاء قارس ، وحرارة لم أعتدها دون الصغر بكثير ، أقف مبتسمًا بعد نزولى من السيارة . فجأة رأيتها تخرج من باب جانبى ، يبدو أنها لمحتنى من النافذة . كانت ترتدى كنزة من الصوف الرمادى . وبنطلوناً رماديًا أيضًا ، تركت معطفها وقبعتها الفرو بداخل ، صرخت مشفقًا عليها فابتسمت مسفرة عن فيض من فتوة وإقبال ، تبعتها صاحبتها الأكبر سنًا ، وإليها يرجع الفضل فى تثبيت اللحظة ، أطيل التحديق ، هل من المعقول أن أتخلص ؟ كيف؟

يقول إنه فوجئ بمن يستدعيه ويكلفه بالسفر إلى ليبيا ، كان ذلك آخر عصر الملكية ، وبسبب خطأ يسير ، غير مقصود فى البرقية تأجل سفره ، قامت الثورة ، وفوجئ بقائدها يطلبه بالاسم ، كيف عرف اسمه؟ لايدرى . كيف توصل إليه ؟ حتى هذه اللحظة لايعرف لكن فيما بعد وصلت إليه روايات عديدة متضاربة .

وماذا لو عدت مرة أخرى؟ كيف يمكن لى استعادة هذه الصورة؟ إنها الملمح الوحيد الدال عليها .

لا يمكن . .

تمزيقها يعنى إفناء لحظة مجوهرة ، رساخة عندى ، طالما أمدتنى بعون على مواجهة اللحظات الوعرة . لابد من وسيلة ما لتبقيهافإذا . .

هل أنت معى ؟

أنتبه

طبعًا ، طبعًا

يتحدث من غرفة لابد أنها فسيحة ، هادئة ، درجة حرارتها مضبوطة ، مستقرة ، آخر مرة رأيته لاحظت صبغة شعره الخفيفة ، صوته لايعرف التعرجات الصاعدة أو النازلة . أحدق إلى ما تبقى فى الدرج . أستعيد لحيظات أقدامى على فتحه ، أول ما أبدأ به نهارى هنا ، أضع المفتاح ، أديره ، المهم أن يظل الدرج مُتاحًا لى ، قبل انصرافى أغلقه . متى يقدر لى أن أمد يدى ، أن أدير المفتاح مرة أخرى؟ يتخذ صوته درجة أقل خفوتًا ، يتأهب لاستئناف شئ ما كان يقوله . .

يؤكد أنه لم يقصد ولم يكن فى ذهنه أبدًا ولم ينبئه أحد بالإمكانية المتاحة ، ولكنه الحظ يتدخل مرة أخرى ليدفع به إلى هذا الموقع الفريد ، صعب المنال ، هكذا وجد نفسه مسئولاً عن عدة آلاف فى وضع حساس وفى فترة دقيقة . كانت الأمور فيها تتجه إلى منحنى وعر بالنسبة للجميع . .

أتأمل صورة عثرت عليها مدسوسة بين مظروفين ، طالما بحثت عنها ، صاحب حميم عن يمينى . ممتلئ ، فقد الكثير من وزنه الآن بعد تمكن داء السكر منه ، نجلس متجاورين . نحدق إلى الأمام ، فى اتجاه واحد ، مبتسمين آمنين ، إلى يسارى صاحبى الآمن . الذى كنت آوى إليه وأصغى . لابتسامته بعد لا أقدر على تعيينه .

تلك أمور لا قابلية لها عنده ، لكنها المفارقات ، إذ تترى التفاصيل ، لايدرى أيضحك أم يبكى؟

إنها ابتسامة ذات ملامح مألوفة ، لكن ماذا يصل منها ؟ لماذا غموضها ؟ لم أتصور الأمر هكذا . .

إنها الأبدية . . إنها الأبدية

هنا تبدو أهمية الرأى والمشورة .

طالما بحثت . . طالما أملت فى عثور مفاجئ

واجهت ، قررت ، لكننى لم أستغرق

مهما حاولت ، فلابد من مسافة ما

غير أن لحظة معينة تحل فتجهز على أى ثبات

إلى أين ؟

صعب هذا النزوع ، هذا التوق

لكنه الأمر كله . .

إذا بدا . .

ماذا يبقى ، وماذا يبدو ؟

غرفــة...

بفضول مستنفر . وخوف من المجهول كنت أتطلع دائمًا إلى الممر المؤدى إلى غرف العمليات ، كنت أتنقل من قسم إلى آخر ، من طابق إلى طابق ، من ممرإلى ممر ، عبر المبانى المكونة للمستشفى ، الطرق المغطاة ، المعلقة تصل ما بين العمارات الموزعة على المساحة الشاسعة .

كل ما يقع عليه بصرى متصل بى ، حتى وإن بدا على خلاف ذلك ، المطبوعات . الأجهزة البادية . الأطباء والممرضون ، يمكن التمييز بينهم بألوان الملابس ، حتى العمال المتخصصون فى النقل يرتدون قمصانا ذات لون خاص ، أما رداء غرف العمليات فلا يمكن أن يخطئه أحد . قميص وبنطلون فى لون السماء الصافية ، من قماش خفيف ، يتيح حرية الحركة ، طاقية من البلاستيك تلم الشعر ، أحذية تشبه تلك المستخدمة فى الملاعب ، يحيطها غطاء من البلاستيك ، يوحد بين تلك العناصر هذا اللون الأزرق الفاتح .

أثناء تحركى من قسم إلى آخر لإجراء التحليلات والكشوف والفحوصات المؤدية إلى تلك اللحظة التى أدخل فيها غرفة العمليات كنت أتطلع إلى هؤلاء محاولا تفسير حركتهم ، وفهم سعيهم . خاصة أن خطواتهم تبدو أكثر صرامة . عند صعودى أرقب الأرقام الضوئية الدالة على الطوابق . الأول ، الثانى ، الخامس ، لاوجود للثالث والرابع .

إنهما الطابقان المتصلان ، فراغهما واحد . السقف هناك لابد أن يكون مرتفعًا .

هكذا أخبرتنى المرافقة التى تقوم بالترجمة عندما تعجز لغتى

الإنجليزية عن التعبير ، كنت أستفسر وأدقق ، لكننى أولاً وأخيرًا أحوم حول تلك الغرفة التى سيتقرر داخلها مصيرى . لم أكن أعرف رقمها ، أو موضعها بالتحديد ، لكن مما قرأته فى الكتيبات الإرشادية أدركت أن المستشفى تعد الأولى فى العالم من حيث الضخامة والإمكانيات ، وأن قسم جراحة القلب يضم ست عشرة غرفة عمليات مجهزة . يمكن أن تعمل فى وقت واحد . وعلى مدار الأربع وعشرين ساعة .

لم أكن أعرف بالضبط أى حجرة ستأوينى ، المهم أن ثمة حيز سيضمنى ، غرفة تتلخص فيها كل ما عرفت من غرف . كنت أتحرك من مبنى إلى آخر ، لكن مخيلتى مشدودة دائماً إلى هذين الطابقين وما يحويان ، أرقب المداخل المؤدية إليهما ، وعند تحرك المصعد أصغى إلى مروره عبرهما ، لا يتوقف أحد بهما ، لهما مصاعد خاصة ليست للاستخدام العادى . . .

أقترب ، أبتعد ، فى نهاية اليوم آوى إلى الفندق المخصص للإقامة ما قبل ومابعد ، ورغم إقامتى فى غرفة محددة ، ورنين الهاتف فى أوقات مختلفة ، فإننى لم أكف عن التفكير فى الغرفة الكامنة هناك ومحاولة معرفة أو تخيل مايجرى داخلها خلال ساعات النهار المختلفة .

خلال حركتى . عند ذهابى ومجئ ، لم أكن أعرف المسافة التى تفصلنى عن الغرفة بالضبط . أحياناً يخيل إلىّ أننى فى الجانب الآخر ، لكننى أقرأ لافتة ، أو أرى علامة تحذر من تجاوز خطوط معينة فأدرك أننى قريب .

في عـصـر ذلك اليـوم قطعت الممـر الفـاصل بين المبنى (أ) والمبنى (ب) ، قالت المرافقة إننا تأخرنا قليلاً ويجب أن نكون عند الطبيب الذى ستنتهى إليه كل التقارير فى موعدنا المحدد بدقة . يبدو أنها أرادت اختصار الطريق . سلكت ممرًا مختلفًا لم أعرفه من قبل ، تطل عليه أبواب معدنية مصمتة ، ذكرتنى بأبواب الغواصات المحكمة .

تطلعت إلى مرافقتى . خمنت ما أرغب الاستفسار عنه ، إما بذكائها . وإما لتعدد مرافقتها للمرضى الذين يستبد بهم عين الفضول . أوقات . .

«نعم..»

لم تضف حرفًا . لزم بصرى هذا الجانب الذى تطل عليه الأبواب ، فجأة . فتح أحدهم . ليس الى الخارج ، إنما إلى الداخل . خرجت سيدة ترتدى الملابس الزرقاء الفاتحة ، غطاء الرأس والحذاء ، طويلة ، ممشوقة ، أيقنت أننى لن أنسى خروجها ، ظهورها المفاجئ ، المباغت . وخطوها السريع ، الأقرب إلى الجرى .

ثمة أمر ما جرى يتصل بمن يتمدد فى الداخل . تماما وسط الغرفة ، أمر دفع هذه الطبيبة أن تخرج هكذا ، تقصد نقطة ما ، جهة لا أعرفها لتعود بما أجهله ، إلى عين الغرفة ، إلى من يحدقون فى الداخل بمن سأكون موضعه غداً أو بعد غد .

ظهورها هذا يخصنى ، مؤشر على استمرارى إذا استعدته ، لحظة من تلك اللحظات التى يوقن الإنسان عند اكتمالها أنها ستبقى معه ، أو تبيد أبداً . .



وَزّان

ينتظرنى إذن !

بمجرد ملامستى أرضية الحجرة بأطراف أصابع قدمى تقدم عبر الباب المفتوح يدفع المقعد ذا العجلات . كنت مغمورًا بالبهجة المنداة ، المصاحبة لقدرتى على الذهاب بمفردى إلى الحمام ، مسافة مقدارها خطوتين فقط بمقاييس وهنى ، لكن لقطعها منتصبًا دون مساعدة له معنى وإشارة إلى بعيد .

أشار إلى المقعد .

«تفضل اجلس»

انتبهت إلى شاشة رقمية عند المسند ، وأزرار أربعة . مقعد مختلف ، تعنى هذه الكراسى المعدنية العجز ، كنت أخشاها وأشفق على من يجلس عليها ويتنقل بها حتى صرت عليها ، لكن هذا يبدو مختلفًا . اعتدت تلبية كافة ما يطلب منى ، أنفذ على الفور إذا كان بإمكانى أو أطلب المؤازرة ، ولأننى لا أقدم على التماس العون إلا عند الحدود القصوى ، فلم أفعل حتى الآن إلا مرة لا غير .

قعدت بحذر ، محافظًا على وضع السلك المتصل بجهاز صغير مستقر فى جيب الجلباب الأزرق العلوى ، المفتوح من الخلف والذى يلامس جسدى مباشرة . استدار بعد اطمئنانه إلى استقرارى . انحنى مطلاً على اللافتة ، حروف حمراء تحركت بسرعة ثم استكانت . .

«واحد وثمانون وثلاثمائة جرام..»

يهـز رأسـه ، يدون الوزن فى الأوراق المعلقـة إلى السـرير . إنه زنجى ، نحيل ، منحن قليـلاً ، أيقنت أننى سأذكره فيمـا بعـد بإطلالته الحانية وذلك الحزن الشفيف وكأنه على وشك البكاء . .

«ماإسمك؟»

«مايك . .»

(من كليفلاند . .؟»

«أعـيش الآن هنا ، لكننى ولدت فى جـزيرة بورتريكو بالكاريبى . .»

«كم عمرك؟»

«ستة وخمسون . .»

«متى تعمل ؟»

«فى أى وقت . .»

قطبت حاجبى مبديًا الحيرة

«ماذا يعنى ذلك؟»

أشار إلى الخارج

«عندما أتم وزن الجميع فى الطابق . . انصرف . .»

«كم يستغرق ذلك؟ »

يبتسم . يلوح بقسماته

«ربما ساعة أو يوم كامل أو . . يومين ، ربما أكثر . . فى مرة مكثت شهرًا هنا . .

لحقنى وهن . عندى رغبة فى الحديث ، لكن التفوه باللفظ مرهق كالجرى ، تطلعت إليه ، مؤتنسًا به ، مطمئناً إليه .

«عمرى ثلاثة وخمسون ، أصغرك بثلاثة ، لكننى سأناديك . . عم مايك . .»

بدأ سعيدًا ، قال إنه يتمنى لى ليلة سعيدة ، عليه أن يذهب الآن ، ثمة إمكانية لوزن النزيلة المقيمة فى الغرفة أربعمائة وأربعة عشر . فى اليوم التالى ظهراً عصرًا والضوء مكتمل . لم أفارق الفراش ، إنما كنت أتأهب لمغادرته ، كنت منتشياً بأمرين ، استيعابى لجسد الممرضة البض ، الفواح ،أو رضاى عن حالى لتدغدغى بما يشعه صدرها وردفاها ، لن أنسى قسماته أبدًا . يهدهد أنتظامى . ويقينى من وجود أسباب تصل ما بين انبعاثى واكتمالها .

كانت تحفزنى لاسترداد أهم ما فى مكوناتى . الأمر الثانى ، انغماسى فى ماء الدش ، المنهمر . بقائى تحت الرذاذ المدغدغ أكثر من عشر دقائق بمفردى تماماً ، عندما دخل صاح بألفة .

«هاى . . كيف الحال اليوم ؟ »

«بخير ياعم مايك . .»

«ممكن ؟»

أصبعه باتجاه المقعد الميزان ، بحذر فارقت الفراش ، حدق طويلاً في الأرقام الحمراء ، عند استقرارها مال مقطبًا ، رصدت حزنًا قديمًا عالقًا ، حزن لا باعث له الآن ، ليس نتيجة لحدث آنى . أو قريب ، ربما يمتد إلى زمن قصى قبل وفادته إلى العالم . أستعدت ملامح أبى وأطراقه الصامت ، الموغل فى ذاته ، حزن وراثى ، فاض منى حنين غزير ، كنت ودودًا تجاه كافة ما يقع عليه بصرى ، وما يتردد عندى من صور وأفكار ومحاولة استعادة للحيظات مارقة ، مستعصية على الرصد ، ونغيمات مجهولة المصدر ، لا يمكننى تعيينها ، تماماً مثل الوقت المؤدى إلى ملامح عم مايك ، يلامس خصره بأصابع يديه ، يمط شفتيه

«أنت لا تأكل جيدًا . .»

«بالعكس ياعم مايك . . كل ما يُقدم إلىّ ألتهمه . .»

يشير إلى اللوحة ، إلى الأرقام

«أقل بثلاثمائة جرام من الأمس . .»

يهز رأسه

«أطلب ما ترغبه . .»

يقول متأثرًا

«لابد أن تأكل جيدًا . .»

يقطب حاجبيه فجأة ، كأنه يصغى إلى صوت ما ، أو تلقى إشارة خفية .

«سأعود بعد أن أذهب إلى ثلاثة وأربعين . .»

لكننى لم أره إلا فى اليوم التالى . بعد أن تناولت الإفطار ، وشربت القهوة منزوعة الكافيين ، وحاولت احتواء ضوء النهار الصيفى المبكر عبر النافذة الزجاجية المستطيلة بعرض الجدار .

بدا مرهقًا ، قال إنه لم يغادر المستشفى منذ صباح أمس ، اضطر الى مرات انتظار متعددة مكث خلال أحدها ست ساعات ، قال إنه يتحين اللحظة المناسبة التى لا تزعج المريض . وعند حلولها يأتى ، المهم ألا يتركها تفلت منه ، إنه يتولى هذه المهمة منذ ستة وعشرين عامًا ، عندما كان الميزان يدويًا ، يجره على عجل ومعه الصنج ، كأنه يزن بضاعة فى سوق عامة ، لكم تطورت الأمور .

لكنه يضطر فى بعض الأحيان إلى حمل المريض بين ذراعيه ليجلس فوق الميزان . إن هذا الطابق مخصص لمن يغادرون قسم الرعاية المركزة . صحيح أنهم يرقدون معظم الوقت ، لكن لابد من مفارقتهم الفراش بعض الوقت ، المشى ولو خطوات معدودات ضرورى بالنسبة لهم . عليه هو اقتناص تلك اللحظات .

«كيف ياعم مايك؟»

يمد عنقه إلى الأمام

«سأخبرك بعد قليل . .»

لم يصل حوارنا إلى نهاية محددة ، إنما كان يفارقنى فجأة ويعود بعد وقت يتراوح بين القصر والطول ، بين القليل والكثير ، أيقنت

أنه لايحمل أى جهاز لتنبيهه إلى لحظة تأهب المريض لفراشه ، أو شروعه ،الحجرات عديدة تصطف حول الممرات التى تتخللها مكاتب الأطباء والمراقبين ، والأجهزة المتصلة بصميم القلوب والأوردة ، بعضها يصدر عنه صفير مفاجئ فتسرى تلك الحركة التى تثير خوفى ورهبتى ، عندما أدرك من خطى الممرضات أو الأطباء المناوبين أن أمرًا يجب تداركه . أو نشوء موقف حرج ، أغمض عينى عندئذ وأرجو .

«كيف تعرف ياعم مايك ؟»

«سته وعشرين سنة تجعلنى أدق من أى جهاز . .»

يشير إلى رأسه . إلى صدره

«هنا . . هنا . .»

قال إنه قادر على احتواء المريض بطريقة معينة ، لا تسبب له ألماً أو ضيقًا ، وتمكنه هو من رفع أثقل الأوزان حتى استواء أصحابها على الميزان ، المقعد ، لكنه يفضل إدراك اللحظة التى يفارق فيها المريض فراشه ، يدركها ، يقدر على رصدها ولو كان فى الجانب الآخر ، أحياناً ينتظر على مسافات متفاوتة بحيث يمكنه متابعة أكثر من حالة .

عند الحديث عن مهمته ، عن دقائق عمله ، عن الذين تعرف إليهم من أنحاء العالم بينهم ملوك ورؤساء وشخصيات مهمة ، قادة ورجال دين ونجوم سينما وعمال وموظفون وفقراء يعالجون بتبرعات الجمعيات الخيرية .

«كلهم جلسوا هنا . .»

يتبدد ذلك الحزن القديم ، أو يخف ، لا يتوارى تمامًا ، يكتمل فى لحظات صمته . وانحنائه صوب الأرقام الدالة ، فى البداية لم يكن يبدى رد فعل ، إنما يكتفى بتدوين ما قرأ ، بعد اتصال الحديث بيننا ، وانتظارى قدومه عندما أشرع فى مفارقة الفراش ، أبدى اهتماماً وحرصاً على المكث لكنه فى لحظة معينة لا يغادر فجأة . أوقن أن شخصاً ما تحرك فى هذه اللحظة أو ينوى . .

قَـــطْرٌ..

صباح اليوم الثالث للإفاقة ، قال الطبيب

«يمكنك اليوم . .»

لم يكن ذلك إلا رداً على استفسارى أول أمس وأمس . أصبعه يشير الى الحمام ، إلى الباب الزجاجى المغبش المفتوح على المدخل القصير المؤدى إلى غرفتى الفسيحة .

كلما أذن لى بما يردنى إلى عاداتى وصلاتى تنفرج ملامحى ويبتل ريقى . يبدو أنه اعتاد ردود أفعالى ، وآعتدت صرامته الهادئة ، بمجرد خروجه تأهبت للقاء الماء ، لغمرى بالرذاذ . الماء الذى تطهرت به ليلة إجراء العملية ، لا أستعيد ملمسه الممتزج بالسائل الطبى المطهر إلا وينحنى رأسى ، يتجه بصرى إلى الأرض .

ماالصلة ؟

لا أدرى ، لا أعرف ، تماماً كما أجهل العلاقة بين الماء والماء ، بين ما تدفق على جسدى وسرى بلله إلى روحى ليلة تأهبى ، وهذه القطرات التى أتجه لتلقيها فرحًا . مبتهجًا ، مُيسرًا ، متأهبًا للتلقى .

تجردت من ثيابى ، رداء مفتوح من الخلف ، يحكم ربطه بشريط من القماش عينه ، بلونه الأزرق الفاتح ، لا ملابس داخلية ، دفعت الباب وتأملت عريى فى المرآة المستطيلة ، التى تغطى الجدار .

شريط أبيض مستطيل . نحيل . يغطى الشق الذى يبدأ من النقطة التى تلتقى عندها عظمتى الترقوة ، وينحدر إلى ما قبل الصرة المضمومة ، لا أعرف اليد التى فتحت ولا كيف جرى ذلك ، أو اليد التى ضمت ورتقت ، وماذا يكمن خلف ما أطالع ، كافة تركيزى فى

استعادة لحظاتى القادرة على استقبال الماء ، هكذا لم أتوقف عند نحافتى البادية ، أو قدرتى على الوقوف ، والخطو أن أكون إلى الخلف . إلى الأمام ، أن أبدل وضعى منتصبًا . ساعيًا ، صحيح أن رقدتى لم تطل ، غير أن تلك السويعات التى أدركت فيها وهنى ما تزال ماثلة ، أستعيدها أو أمر بلحظات تشبهها فأطرق وأغمض عينىَّ ، منقبًا عندى ، أو ملبيًا سعى إلى نقطة ما من الذاكرة .

المكان المخصص للوقوف تحت الدش مربع ، محدد بإطار ، حرت ، هل أتلقاه بالمواجهة ، أم على ظهرى ؟

لم أكن بحاجة إلى التأجيل للاستفسار ، طالما أنه سمح ، اخترت المواجهة . هكذا أقبلت ، تطلعت إلى أعلى . إلى المصدر المعدنى كمثرى الشكل ، دائرة صغيرة تتخللها الثقوب .

أدرت المفتاح على مهل ، لم تظهر القطرات ، ثوان وأطل بعضها ، أكملت فتدفق الرذاذ متعاقبًا مصوبًا إلى سائر لحظاتى ، تفتحت رويدًا رويدًا ، أتعرف من جديد على ملمس الماء إذ يستقر فوق الجلد ويبدأ السعى ، متصلاً ، ستمراً ، لايمكن تعيين بداية محددة ، أو نهاية ، فإذا قلت إن هذا المفتاح فيه الإذن بالبدء لصار ذلك سهلاً ميسوراً . إذ يكمن الماء داخل الأنابيب الممتدة . منها ما خفى وما ظهر إلى المنبع . والقطرة ذاتها لا أول لها ولا آخر ، وليس رسوها على جسدى إلا مرحلة تطوينى بقدر ما أطويها . وتأخذنى بقدر ما أحتويها .

أنتبهت إلى طول وقفتى ، إلى تدفق الماء على صدرى ، على مهل أستدرت مبتعدًا بجرحى ، سرى الماء عبر كتفى إلى سلسال

ظهري ، إلى ردفى ، بللت بيدى ثنايا ركبتى وما بين فخذى ، ورفعت ذراعىّ حتى ينال أبطىّ نصيبهما ، حتى يدركهما المس ، ثمة رد فعل بسيط لجرحى ، لمكمن الشق ، ربما استجابة متوقعة ، مرضية ، مصدرها الغطاء اللاصق ، العازل .

أستدير مرات ، أرغب فى الصياح ، فى إصدار أصوات ما متوالية ، متعاقبة ، أرفع يدىّ إلى أعلى ، أحدق فى الغمر المنهمر . المتوالى ، ومنى تبدأ القوة الدافعة ، المحرضة ، أضم شفتى ، تتداخل الحدود ، وتنتفى فواصل الرؤيا بتخلل القطرات لبصرى ، لاختلاط مفاهيم النظر على مهل استمر فى الحركة ، مثيرًا الفوضى عندى ، مستعيدًا للحظات ظننت أنها أفلتت وانزوت ، اندثرت ، أتوحد بسيولة الماء ، أحاول المضى إلى أوله والإلمام بآخره ، تماماً كما نبدأ بالماء ونختم بالماء ، فلا نعرف ، هل تخللنا أم أمتزجنا به ، هل ينفذ القطر إلىّ أم أنفذ إليه كما جرى أول مرة !

دفء ..

مُدَمْلَجة

عندما ولجت الغرفة ترددت الكلمة عنده وترسخت مع حركتها ، رواحها ومجيئها ، أنحنائها وقيامها ، لفتاتها وإيماءاتها ، لم يتوقف ليتفحص الكلمة ويقلب معناها أو دلالتها ، بل إنه لم يجهد نفسه فى استعادة أصلها أو المصدر الذى بزغت منه ، إنما سعى بالبصر ليحتوى وينتشى .

ليست ممتلئة ، لكنها ريانة ، طلية ، ثيابها تشى ببضاضتها ، فى ملامحها عذوبة ومس من طفولة وشبوب وجنات حاضة ، متأصلة ، يمكنها بث التفاهم عند المواجهة .

يحتويها بالنظر من مستوى أفقى لا يتبدل ، من رقدته ، إنه مستسلم تمامًا غير أن نشوة غامضة تصحب قدومها ، استداراتها مرسلة ، مُنمية ، مودعة لرسائل غامضة يعسر عليه فضها الآن .

إنه متلق ، محدق إلى سائر ما يتوالى عليه منذ اكتمال إفاقته ، بدء استيعابه الموجودات ، تعرفه إلى المفردات . ليس فى حاجة إلى من ينطق بالحروف ، لديه رصيد وافر ومراحل منقضية ، شتان ما بين القدوم الحالى ومجيئه الأول إلى الدنيا ، فى تفتح لحظات طفولته كانت الدهشة قادمة من خارجه ، لكنها الآن آتية من أعماقه ، من أغوار بعيدة .

الجدران بيضاء ، السقف سماوى ، ما بين الأزرق الفاتح والأبيض الممكن تتوزع الحدود .

ترتدى بلوزة خضراء ، وبنطلون أبيض ، لألوان الملابس دلالاتها كما بدأ يستوعب ، إنها مساعدة الممرضة المسئولة عنه . عندما ولجت الغرفة لأول مرة أقبلت نحوه . ابتسامتها مطلع لحضورها ، توجه إليها بوهنه ، وبهدوء يطفو فوقه بتأثير مسكنات يجهلها ، تُوارى آلام شق العظام والجلد ، غير أن نفرات مفاجئة كانت تعنى عنده أن قلبه لم يتكيف بعد مع الوضع الناشئ ، المسجْد ،

أومأت إليه ، دارت حول السرير ، قلبت أوراقًا معلقة ، وقالت

«كل شئ رائع . . كل شئ حسن . .»

استدارت ، اتجهت إلى لوح أخضر مؤطر بخشب قاتم فى مواجهته ، كتبت بطباشير أبيض

«الممرضة المسئولة : إيزابيل . .»

«المساعدة : كاترين . .»

انثنت إليه باسمة . إلى الاسم الثانى أشارت ، لمست صدرها بطرف أصبعها ، اكتملت بإفصاحها عن الاسم . أومأت ، وعندما غابت افتقدها على الفور تمنى لو عادت ، فكر فى أن يضغط الجرس ، قرب أصابع يده أزرار يمكنه من خلالها تشغيل التليفزيون المواجه ، وتحريك أجزاء السرير بما يحقق له الراحة ، واستدعاء الممرضة . لكنه لم يفعل . آثر الأنتظار .

ثلاثة طواقم يتبدلن عليه . فى اليوم الأول تداخل عليه الليل

والنهار ، الزمن صيفى والشمس تغرب فى تلك البقاع قرب منتصف الليل ، لم يشأ الاستفسار حتى يبقى لظهورها المفاجئ طلاوته .

اختصرت ملامح الكافة ، رغم أن بعضهن وضاحات ، ألقهن فواح ، إحداهن رشيقة ، كأنها ترقص عند انتقالها من موضع إلى آخر ، تمسك الدواء كأنها تقدم زهورًا نادرة رقراقة ، لكنها لا تشبه كاترين .

رغم أن وضعه يحتم حملقته إلى السقف معظم الوقت ، لكنه قادر على توجيه البصر ، إما باتجاه النافذة ، أو الباب ، أو التليفزيون المعلق فى المواجهة ، لم يسع إلى الفرجة عليه ، لم يحاول ضغط الزر ، ولم يطلب .

آه . .

خفقة ، ليس مصدرها الجراحة التى تمت ، ولكن باعثها دخولها ، لبصره قدرة الآن على الاحتواء ، أوسع ، أشمل ، أعمق .

مثالية التكوين . أنثوية الخطوات بأصولها وفروعها ، ينتمى لقدومها بغير لفظ ، يرهقه النطق .

يتابع حركتها ، يتمنى بقاءها ، إذ تستدير لتكتب بعض الملاحظات مستخدمة الطباشير الملون ، يتمهل عند براعة تكوينها ، الكتفان المنحدرتان ، الظهر المنبسط . المنخفض من المنتصف قليلاً

والمؤدى إلى تقبب ردفيها المتصلين بانفصال بديع ، تمهل عندهما ، ما يربطهما بنهديها البارزين يستعصى على الإدراك .

تستدير . .

يطق شرار خفى . تندلع الإشارة عند تلاقى النظرتين ، لم يواته خجل ، ذلك أن دفئاً بدأ يسرى عبر رقدته . مصدره مثولها ، مجرد حضورها أمامه ، ولم يكن إلا إشارة على تمام وصوله . .

ترائـب

يصغى إلى البلل الدافئ ، المعمر ، الطازج ، يروى عانته المحلوقة منذ أسبوعين فقط ، ليلة إجرائه العملية ، لم يطلب منه أحد ذلك فى قسم التجهيز لكنه أقدم .

يغمض عينيه رغم عتمة الغرفة . لا تعنيه الساعة . عند أى حد وصل ، هل أوغل فى النوم أم لا؟ يحاول استعادة ملامح الوجه القادم من أغوار سحيقة إلى ساحة حلمه ، لا يمكنه التحديد بالضبط ، لكنها تمت بشكل ما إلى محبوبتين عرفهما ، الأولى عندما سعى طفلاً ، نجلاء العينين ، مرتوية البشرة ، صحبها فى الحارة ، لم يلمسها ، لكنه لم يكف عن التطلع إليها ، الأخرى ضوئية ، قضى بصحبتها أيامًا فى ديارها ، ولكم احتوت جسده بحنان جميل .

كأنه يراهما الآن ، مع أن هذه كانت طفلة ، والأخرى مكتملة الطرح ، غزيرة الفيض ، كلاهما تمازجتا ، وفدتا عليه معًا ، صاغتا تلك الأنثى المُرْضية ، الساعية إلى إتقان رغبته ، متخذة الوضع الذى يرغب ، محلقة به ومعه ، ساع إلى الاتحاد الأتم بها .

مكان ما حيث لا يمكنه تعيين ملامح أو صلات . كأنه يضاجع معلقًا فى فراغ ما . يتذكر صاحب مقهى بغدادى قديم له هواية بالطيور ومتابعة أحوالها وطرق غزلها ، وأساليب تقربها من بعضها ، ومايحدث عند وصالها ، حدثه عن نوع معين من

البلابل ، يطير الذكر والأنثى معاً وعند ارتفاع معين يحدث التلاقح ، هناك إلى أعلى ، فى نقطة ما من الفراغ المقيم .

صمت مكتمل . تنهمر عليه التفاصيل ، انها الليلة الرابعة عشرة منذ خروجه وقدومه إلى الفندق ، قريب متصل ، بضغطة زر مجاور للهاتف يمكن استدعاء عربة الإسعاف على الفور .

تغمره الأمواج الأبعد مدى بعد اكتمال القذف ، استيقظ على الذروة ، لم ينته التوتر بعد ، مازال جسده مشدودًا ، مستقيمًا ، يهدأ على مهل ، كأنها المرة الأولى .

متى جرى ذلك ؟

لم يدون اليوم أو الساعة ، فقد العلامة إلى الأبد ، عندما فوجئ أثناء نومه بذلك التوتر الطلى ، واللزوجة ، اكتشف مذهولاً أن لديه سائل أكثف من البول ، لكن لظهوره شروط أخرى . لم يخبر أحد بما جرى ، خجل من والديه ، من صحبه ، سعى إلى الكتب متلمسًا الخبر .

يأسو ، عرف مراهقة بائسة أورثته همومًا وأنطواءً ، لم ينل حظه ، ولم يعرف المرأة إلا بعد العشرين ، كم مرة أطلق رحيق الحياة الكامن بين صلبه وترائبه ؟

لا يمكنه الإحصاء ، لا يتوقف إلا عند مرات مضاجعة معدودة رغم تنقله عبر السنوات المتوالية بين عديدات ، ومرات عشقه المكتمل .

كم من الحيوات أهدر ؟

يبتسم ، يتنقل من تعبير إلى تعبير ، من أسى إلى رضى ، من حزن إلى فرح ، تفد عليه لحيظات مارقة وأخرى ظن اندثارها عنده ، مازال يحاول الاستيعاب ، إنه متكيف الآن مع رقاده على ظهره ، في المستشفى كان السرير الطبى يتحرك متلائماً مع رغباته ، لكنه لم يستطع التمدد على جانبه الأيمن كما اعتاد ، يتخذ وضع الجنين فى الرحم ، يسند رأسه إلى ذراعه وينام ، لم يقدر على هذا الوضع الذى أضطر إليه هنا ، خاصة بعد مجيئه إلى غرفته فى الفندق حيث السرير عادى ، تساعده زوجته كل ليلة على لملمة الوسائد وراء ظهره ، بحيث يصبح نصفه الأعلى مشكلاً زاوية مع الأسفل ، اعتاد الوضع . أين سمع هذه العبارة ؟ : لا لقدرة الإنسان على التكيف .

سمعها أم قرأها ؟

لا يدرى

إنه مهدهد الآن ، ثمة آلام فى صدره ، لكنها لا تقضه ولا تدفعه إلى التأوه ، المتعة ما تزال تتردد داخله وتعبر إلى خارجه ، يتذكر سطورًا قرأها فى كتاب عتيق ، يذكر مؤلفه وقوع القذف لحظة بدء نوبة الصرع .

لماذا تنفذ إليه المنغصات فى ذروة رضاه ومتعته ؟

منذ سنوات مات شاعر فى غرفة بأحد فنادق الغربة أثناء سفره ، قيل إنه كان مبلولاً بالمنى . قال أحدهم أن مثل هذه الحالة يقذف فيها المرء لحظة تعثر أنفاسه ، أو ربما بعد أن تكف ، أو يتوازى الفعلان معًا ، إفراغ ما بين الصلب والترائب ، والسعى إلى إيداع الكون رسالة تشبث ، آخر ملامح المقاومة ، قبل العودة إلى السيرة الأولى . .

مـــــذاق..

بتأن خاطبنى . .

«أمامك أربعون يومًا . .»

صرت إليه بملامحى وحواسى . سددت الإصغاء ، حتى لا تفوتنى إشارة أو معنى لم تيسر اللغة وصوله ، منذ رؤيتى له اعتبرت سماته الشرقية حجة للقربى منه ، وعندما حدثته عن أصفهان مسقط رأسه ، ومسجدها الجامع الذى لم أره إلا فى الكتب ، وعشقى لأشعار حافظ وسعدى ومنمنمات بهزاد ، هز رأسه ، ردد كأنه يخاطب آخرًا يقف ورائى

«جميل . . . كل هذا جميل . .»

يصمت لحيظة ليؤكد من جديد

«أربعون يومًا ثم تتوقف تمامًا لتبدأ النظام المكتوب فى الدفتر المسلم إليك . .»

يبسط يده

«كُل ما تشتهيه . . دجاج ، سمك ، لحوم مسلوقة أو محمرة ، لكن بعد تمام الأربعين يومًا ليس بوسعك إلا الالتزام بالنظام المكتوب هنا . .»

انقضت ثوان ، قال مداعبًا . .

«لا نريد أن نراك هنا إلا زائرًا . .»

راجع أوراقًا ، كلها متعلقة بى ، فجأة بصوت مرتفع . .

«سلام عليكم . .»

لنطقه خاصية وفرادة ، هكذا يبدأ اللقاءات مع أهل المشرق بالسلام وينهيه .

بعد خروجى من مكتبه . من الغرف المتداخلة المؤدية فى النهاية إليه ، دققت البصر فى الممر ، فى الملامح ، فى اللونين الأبيض والأزرق الفاتح ، درجة مستلهمة من سماء صافية لانهائية ، خريفية أو ربيعية ، أجلت استعادتى ما قاله ، لم أفكر فى كلماته الواضحة ، المحددة ، لكننى رحت أحاول استيعاب ما أراه لأبقيه ، هنا تقررت بشأنى أخطر ما عرفته . أيام معدودات أنتقل بعدها من هنا إلى هناك ، من حال إلى حال ، كافة ما أعانيه الآن سيمثل عندى كتداعيات ، تفاصيل شتى ستمحى ، سيصير شأنى إلى طبيبى الأصلى فى مصر . لحسن حظى أن مودة اتصلت بيننا ، نتج عنها تجنيبى أوقات الانتظار الطويلة .

فى هذا المبنى ، ما بين الطابقين الثانى والرابع . عبرت إلى الأبدية ورجعت ، صرت إلى نشأة جديدة . لكننى هذه المرة أعرف أبجدية الأشياء ، مولود ليس فى حاجة إلى من يدله على الضار من النافع . كنت مقبلاً ، متدفقًا مع وعيى بالمحاذير والأطر النافعة .

بعد اجتيازى عتبة الفندق المتصل بمبنى المستشفى ، جلست فى البهو المؤدى ، أنتظر ماجدة لنصعد إلى الغرفة معًا ، كانت فى المطعم المجاور تحضر ما يصلح للعشاء ، ما قاله الطبيب لى . صارحها به ونبهها إليه ، تعرف أننى خلال المدة مسموح لى بتناول ما أشتهى . بعدها يجب الانقطاع ، لمح الطبيب إلى التئام الشق الذى يستغرق وقتًا ، الطعام الجيد يساعد شرط احتوائه على البروتين والعناصر الكافية .

تعد قائمة تضم ما أرغب ، خاصة بعد رسونا فى ديارنا واتصال أمورنا ، تحاول تلبية ما تعرفه عنى ، السمك المقلى ، الباذنجان فى سائر أحواله ، لحم الرأس ، الكوارع .

لكن الطعام متصل بأمور أخرى . المكان والتوقيت والصحبة والألفة ، فى الفندق الآخر ، المجهز ، مطعم فاخر ، يقدم الفول المدمس والطعمية ، حدثنى أستاذ بجامعة أسيوط ، سبقنى إلى إجراء جراحة مقاربة ، فاقنى بالحضور والتجربة ، حرص على تزويدى بما لم أكن أعلم ، قال إن الإدارة لاحظت حنين المصريين إلى الفول ، أحضروا من يعده بإتقان ، بعد خروجه اشتهى طبقًا وحن إليه . دله من سبقوه على المطعم وها هو يرشدنى ، صباح اليوم التالى مضينا ، الرائحة نفاذة ، والفول كالزبد ، حتى المواد المساندة مصدرها مصرى ، الكمون ، الزيت ، الفلفل الأسود ، الطباخ مصرى ، جاء مبتسمًا ، مرحبًا ، أستفسر وأطمئن ، قال إنهم يعدون الآن الأطباق المصرية ، خاصة الملوخية والفطير المشلتت .

«ياه . . حتى الفطير»

نعم ، كل ما نريد ، فقط ينبغى التنبيه قبل يوم واحد ، سألته عما إذا رغب فى إرسال شئ إلى مصر ، أبدى المودة ، تمنى تمام الشفاء .

الفول جيد ، لكن ثمة شئ ينقص ، يتصل بالبنية ، بالمنظومة ، الفول فى أشكاله المختلفة ، قالت ماجدة

«ظننتك ستطلب طاجنًا أو بطة محمرة . . أنت فى حاجة إلى دسم . .»

قلت مجادلاً ، فرحًا باستتار ، سرور من نوع مغاير ، يسرى عندى ولا أبديه ، يرقق بصرى ، ويشف ملامحى ويدفعنى إلى المجاوبة الرفيقة ، بينما يفيض أمرى بود حميم وسعى إلى إرضاء كافة عناصر الوجود ، حتى تمنيت تقبيل الفراغ وعناق الضوء .

«سأفصل النوازع ، وأشرح الدوافع . .»

مـــرق

إنه الأعتق ، القائم بحاله ، المتنوع بصفاته ، لكل منها مذاق ، عندما اطلعت وألممت بالمراحل التى تمر بها حبة الفول من تقشير ونزع وكَمْ وفرز وتدميس بطىء ، هين ، أيقنت باكتمال هذا عبر آلاف السنين من تراكم المعرفة مع اتقاد الملاحظة وتنقية الخطى واستواء التجربة ، ما هذا إلا نتاج معرفة متراكمة ، طويلة ، من الصعب تعيينها .

أطباق تتراص أمامى ، تنبعث من ذاكرتى ، تتوالى ، ، أقدمها على الإطلاق فول أبو حجر ، لا أثق برؤيتى للبائع ، هل وقفت أمامه إذ يولج المغرفة طويلة اليد ، نحاسية المعدن فى فوهة القدرة الفخارية الموضوعة وسط العربة بميل معلوم ، لها فى العربة وضع ، وفى المطاعم ترتيب آخر ، أعلى من قامة البائع . هل رأيت أبو حجر؟

ربما ، لكننى غير واثق ، مع بلوغ المرء نقطة متقدمة ، تندمج خيالات الطفولة فى وقائعها ، يصبح من الصعب الفصل بين الحالين ، على مسمعى تردد الاسم فكونت صورة له وملامح ، قامة

متوسطة ، وغطاء رأس من اللباد ، وجه جاد الملامح ، يخاطب زبائنه بالنظر ، باعث على الخشية بدرجة ما ، هكذا تخيلته فى كل مرة يرجع فيها أبى من صلاة الفجر حاملاً الإفطار . طبق الفول ، وكوب اللبن من المالكى القديم ، الشهير ، مع الوقت اندمجت الملامح التى شكلها خيالى من وحى الاسم ، سواء لأبى حجر أو المالكى الذى تخيلته طويلا ، نحيلا ، يرتدى طاقية بيضاء وجلباباً أبيض وبلغة بيضاء .

كلا ، من المؤكد أننى لم أر أبا حجر ، ولا المالكى ، لكن لهما فى مخيلتى صورة ، وحضور ، وامتثال ، لهما ولغيرهم وقت ومكان ما لا أقدر على تحديد موضعه .

طبقًا لرواية الوالد - رحمه الله - كان موقعه قرب مدخل حارة أم الغلام ، قرب الباب الأخضر لمسجد مولانا ، لم أحتفظ بالمذاق وحده ، إنما باللحظة ، اللمة ، اكتمالنا الصحبة والقربى ، تمام اكتمالنا وقت تحققه ، تحوله إلى ملاذ ومصدر تحنين وتوق إلى أضمومة انفرطت .

فول أبى حجر له المرجعية وإليه القياس ، اللون بنى فاتح ، كأنه مهروس ، لكنه ليس كذلك ، مؤكد خلطه بمقادير معلومة من عدس إسنا الذى يصبح كالزبد عند أول مس من الحرارة ، لذلك اكتسب تماسكاً مع استواء السطح ، قرب المركز نثيرات من البقدونس والشبت ، فى الوسط تماماً عنقود مضموم من ثوم مهروس . ترتيب لم أعرف مثله فيما تلى ، تمهل ، عناية ، إتقان مفرد .

قال الوالد - رحمه الله - إن أبا حجر كان يجيئ من ناحية كفر الزغارى ، يقف بعد صلاة الفجر ، لابد أن ينصرف قبل شروق الشمس ، يتعجل لملمة حاجاته قبل بزوغها رغم أن المبانى تفصله عنها وتحجبها عنه ، لكن إدراكه لها لم يخب قط ، كان يعرف من لون الضوء .

لم يعمل إلا متمهلاً ، محدقًا إلى القدرة والأوعية الحاوية للملح والدقة والخضرة والثوم المجهز وزجاجات الزيت بأنواعه . الحاد . الفرنساوى . البذرة ، العادى ، زجاجة للشطة ، لم يُسمع صوته ، وكان زبائنه لا ينادون ولا يتعجلون ، يرتب الأوضاع مستغرقًا ، يضبط المقادير بتأن ، أحياناً يتراجع إلى الوراء لينظر إلى الطبق ، إذا لم يعجبه ، يفرغه فى وعاء مجاور ، ثم يبدأ من جديد ، لا يقدم زبونا على آخر مهما علا الشأن وتميزت الرتبة ونصعت الهوية ، كثيرون ممن اعتادوا أداء صلاة الفجر يجيئون من جهات شتى وينتمون إلى مستويات مختلفة ، بعضهم وجهاء من الصعيد أو الوجه البحرى ، وآخرون قضاة أو وكلاء نيابة أو مستشارون فى جهات إدارية وأطباء مبرزون فى مجالاتهم وصفوة . منهم المحب لفول أبى حجر ، يقصده بعد الصلاة ويتخذ موقعه بين الواقفين ، لا يلفت النظر إلى شخصه ، لايرجو السرعة ، الحذار ، الحذار ، من إقلاق أبى حجر أثناء تهيئة الفول ، ما يتمناه كل منهم أن يلحق قبل فراغ القِدْرة أو قبل طلوع الشمس ، كلاهما مانع ، حاجب ، قِدْرة واحدة لاغير لاثان لها .

قال الوالد - رحمه الله - فى لحظة صفاء إنه كان يؤثره وعلامة ذلك سؤاله عن أحواله مع ذكر الاسم ، وهذا نطق نادر .

«كيفك يا أحمد . .»

لم ينطق ما ذكرته فى جلسة واحدة ، أو خلال حديث متصل ، إنما هذا نثار ضممته باستدعائى له ، وربما حوى مالم يقله ، لكنه صار جزءاً من التداعى . مذاق مغاير لكل ما عرفته فيما بعد ، لما تعاملت معه ، يكتمل بالخبز الطازج المعروف بين الناس بالبلدى ، قاهرى الخبيز والتكوين ، لأنواعه معزة ومنزلة ورائحة خاصة تنز بالرغبة وتدفع إلى الاشتهاء ، منه الطرى والملدن والمفقع ، درجات ثلاث من اللين والطراوة والصلابة ، لكل منهم شرح وتفصيل ، به يتيسر غَرْف الملوخية والطبيخ ، يتم تشكيل اللقمة على هيئة أذن القطة ، ولهذا حديث طويل ليس محله الآن .

الخبز البلدى الطازج إذا ما اقترن بالفول فهذا كمال التواؤم وعين التناسق ، هذا ما افتقدته كثيراً فيما بعد ، عندما انفردت وصرت إلى الشوارع والنواصى وحدى ، قصدت دور السينما مع صحب ، قبل دخولنا نمضى إلى الدمياطى ، أخصائى فى الفول ومشتقاته وما يتعلق به ، جاء من دمياط وافتتح مطعمًا قرب باب الحديد ، قدم وجبة كاملة ، صينية فوقها طبق من الفول المهروس يذكر بالقديم المتبل ، لكنه أخف قوامًا ، طبق ثان يحوى أربعة أقراص فلافل . ثالث به سلاطة خضراء ، رابع به سلاطة طحينية ، مقابل هذا أربعة قروش . كان ذلك فى بداية الستينات ، الآن . . نفس الوجبة سبعة جنيهات ، أقول هذا وقت تدوينى ، نهاية التسعينات فكم ضعفًا جرى ؟

ما باعد المسافة تقديمه لخبز أبيض عُرِف بالشامى ، خلو من الردة ، غير مطواع ، لمذاقه لكنة ، شاع استخدامه منذ بداية الستينات ، ربما بعد الوحدة مع سوريا ، فى رأيى أن لأهل الشام إتقان الحلوى ، أما الخبز فشأنه مصرى بتنوعه وقدمه ، كذا وثاقة العلاقة حتى سُمِى بالعيش أى الحياة وإذا ما رأى إنسان قطعة فى عرض الطريق فمن الشائع ، ما جُبلنا عليه ، تقبيلها قبل وضعها إلى جوار الجدار بعيدًا عن مواطئ الأقدام . ومما عانيته لحظة شراء الخبز ، إذ يقدم الزبون رجلاً أو امرأة فيختار ويحصى ثم يتجه إلى البائع ليقول عدد ما حمله فلا يُراجع أبدًا ، للخبز قداسة عتيقه فى الضمائر وإشراقات الحياة .

فى بداية الستينات سافرت بمفردى أول مرة إلى الإسكندرية ، عرفت عناية أهلها بالفول وتدبيرهم طرائقه ، خاصة تجميله بالبقدونس وأصناف الخُضرة ، شاع أمر مطعم قريب من محطة الرمل الرئيسية ، الفول عنده غير مهروس ، الحبات واضحة ، جلية ، مكتملة ، يمكن عدها ، لكنها تصبح قريبة من فول أبى حجر إذا ما هُرست جيدًا بالشوكة ، لكن ما يُباعد المسافة ذلك الخبز الأبيض والحبات اليقظة ، المستديرة ، لا تكتمل إلا بعد دعك وشج .

بائع فى مواجهة المدخل الوحيد للحارة . حارة سد لا يدخلها إلا ساكنوها ومعارفهم ، لا تفضى إلى درب آخر أو عطفة أو زقاق ، بائع يرتدى جلباباً أبيض وطاقية ومريلة يتصدرها جيب واسع فيه قروش وعملات معدنية ، خمسة ، عشرة قروش .

«توصى ياعم . .»

هكذا أصيح ، فيتظاهر أنه يضيف مقدارًا من المرق والفول ، يهز الطبق ليسوى السطح ، وقد ينتابه وجد ما فيغنى منغمًا

«ياحلو يالوز . .»

لا يخاطب شخصًا بعينه ، إنما يزعق عبر الفراغ فأدنو منه بودى وأخوتى ، وأشفق عليه لسبب مالا أدريه ، ربما لأنه يتحدث إلى نفسه ، مخاطباً وقفته بتدليع الفول والغزل فيه .

ربما كنت فى العاشرة أو الثانية عشرة .

لكن . . لماذا أسعى إلى البائع فى هذا الصباح الباكر ؟

أيام معدودات على مدار العام يداهم الوالد – رحمه الله – ألم شاق ، وعر الاحتمال ، مركزه أسفل الظهر وأعلى الفخذ الأيمن ، حار الأطباء فى تشخيصه ، قال أحدهم على مسمع منى : إزمان فى العامود الفقرى! لم أفهم العبارة وقتئذ وإن ظل إيقاعها معى .

أعرابى يقطن قرب الأهرام ، مال إلى الأمام ، قال : رطوبة كامنة ولا بد من كَىْ ، للوالد – رحمه الله – قدرة وجلد على احتمال الآلام ، لذلك كان رقاده استثناء وزلزلة ، دنو من المجهول ، أقطع الحارة حاملاً الطبق مطرقًا ، شجيًا ، داعيًا له بالسلامة ، مرددًا التوسلات القديمة أن يقوم .

ما اسم البائع ؟

لا أعرف

أى ملامح ؟

أسمر ، طاقية من قماش أبيض ، دائم الحركة ، مستغرق ، الاستثناء تلك الصحة . إذا انصرف الزبائن وصار إلى وحدة يقلب الفول بالمغرفة طويلة اليد .

للفول المطهى بالتقلية والطماطم منزلة ونَفَس ، بديل اللحم والخضار ، لا شئ يحض الشهية مثل التقلية ، تلك ليست هدفًا فى حد ذاتها ، لكنها واسطة ، مكوناتها دالة على حقبة وجزء من كل ، كلاهما متمم للآخر .

أمى تقعد إلى موقد الغاز من طراز «بريموس» ، إعلان بطول المبنى المرتفع ، مطل على ميدان العتبة ، ناحية معارض أحمد حلاوة للقماش والملابس الجاهزة صنع مصر ، ودكان خارا لمبو اليونانى أشهر من يعد مشروبات السيفون ، ومعرض ويلسون الحلوانى . على مدخل سوق الرويعى حيث كافة ما يحتاج إليه التزية ، ماكينات الخياطة ، قطع غيارها ، الإبر بأنواعها . كذلك لوازم الأقفال من مفاتيح وقطع غيار ومقابض أبواب .

إذ تستوى النار ، تضع أمى فوقها الحلة ، ملعقة من السمن البلدى ، بعد ميقات معلوم تلقى شرائح البصل فى الحرارة المتقدة فتقع الطشة . طشة البصل أو الثوم ذروة فى مراحل إعداد الوجبة ، إنها الحدة الشاطفة ، أتمنى ديمومتها وإن كانت تؤجج جوعى ، دائماً أفضل لحيظات احتدام الرغبة وليس إشباعها .

عند اصفرار البصل أو الثوم . ظهور اللون البنى ، تضيف عصير الطماطم ، الأحمر القانى ، تقلب جيدًا ، ثم . . الفول الناضج ليلج دائرة الاستثناء ، الفول بالبصل المقلى والطماطم ، امتزاج العناصر .

لكل شئ لوازمه الكامنة ، الخبز البلدى قرين ، خير معين ، اللقمة بقدر ، أشكلها على هيئة ملعقة أو «ودن قطة» . فى المعتقل أثار استخدامها جدلاً لقلة الغموس واشتراك عدة أفراد فى الأكل من ماعون واحد ، احتد الأمر بسبب مهارة بعضهم في غَرْف النصيب الأوفر . جرى اجتماع ومفاوضات انتهت بقرار من اللجنة المركزية لتنظيم الحياة العامة وتحريم «ودن القطة» أثناء تناول الوجبات .

طبق من الفول ، حبات مغموسة فى السمن البلدى الغزير ، أطباق أخرى فيها جبن حلوم ، جبن معتق ، متقن الحفظ ، اتخذ لوناً متوهج الحمرة ، طبق فيه مخلل تتوسطه ليمونة متشققة ، استوت تماماً ، عسل أبيض ، بيض مسلوق ، بيض فى السمن ، مائدة مثقلة فى بيت قريب من النهر ، مرتفع الجدران ، عند أطراف مدينة سوهاج ، كنت أجلس منكمشًا ، خجولاً ، أركز بصرى فى المائدة . وأردد فى صمتى إن الطعام ظرف ، واستعادة الأكل عينه لا تفى .

لماذا ذهبت إلى هذا البيت ؟

بيت من ؟

بصحبة من ؟

عبثًا أستعيد الوجوه ، أو الملامح ، أعى قولى . .

«فول ماحصلش . .»

تقول ربة الدار

«بالهنا والشفا . .»

متى كان ذلك ؟

متى ؟

العيش الشمسى

أين ؟

فوق الطاولات المصنوعة من طمى النيل ، ذروة تعلق الشمس وتأججها ، تزدهر الخميرة من نار الكون ولفح الديمومة الشمسية ، أدرك لحظة تدوينى هذا مالم أعرفه أول مفتتحى ، تلك الصلة بين الخبز والفلك .

قديم ، عتيق ، احتفظت جدران المقابر المصرية القديمة ، وقرابين المعابد بملامحه ، من قمح نقى خالص لا تخالطه حلبة أو ذرة أو أى عنصر دخيل ، غريب على الدقيق الناعم المطحون ، يبدأ العجين فى الصباح الباكر ، قبل الشروق ، التوحد بأنفاس الأنثى الطاهرة ، الشبّقة ، المبدعة ، لكم أصغيت إلى الشهيق المصاحب للقعدة أمام ماجور العجين ، انفراج القدمين ، أو الاتكاء على الركبتين مع الميل المثير ، فيما بعد أدركت الصلة بين الشهيق والشهيق ، تردد الأنفاس ، ما بين لحظة الخبيز واتقاد النشوة . كلاهما تمهيد وتوق إلى الخلق . بعد الاكتمال يحين أوان التقريص ، تناول مقدار بخبرة تتوارثها الأيدى ، مصحوبة بسداد التقدير المؤدى إلى القديم . ترص فوق الطاولة ، تبدأ الرضاعة من الأشعة الأبدية ، تنفش ، يسرى عبير الخميرة ، معلنة التهيؤ للوقيد الإنسانى ، إلى الفرن .

أقعد إلى جوار امرأة خالى ، فى اللحظة المواتية تسحب الرغيف المتخذ طريقه صوب النضج ، تقلبه حتى يطال الوهج سائر أجزائه .

بخفة تخرجه ، ساخناً ، لكنها بسرعة تضعه فى المشنة ، منه يفوح كمال الاستواء ، عبق لا قرين له ، أتعجل قضمة ، لابد من وقت مع النفخ للتهدئة .

إذ يقع الاقتران بين الخبز الطازج واللبن الراسخ الحامض ، أو العسل الأسود الممتزج بالطحينة أنتشى وأرضى .

عسل القصب ، امتزاجه بطحينة ، أو لبن رائب .

مما أتوق إليه ، ما أوده ، أن أقصى خواطر تؤكد وصولى إلى زمن يستحيل فيه ذلك ، من الأفضل أن يؤكل «العيش» فى يوم خبيزه ، رغم أن عجينه وخبيزه روعى فيه القدرة على البقاء عدة أيام . بالتأكيد ثمة فارق بين «العيش» الذى كنت أقرفص منتظرًا خروجه من الفرن ، وذلك الواصل إلينا من البلدة فى القفة مع الدوم والملوخية الناشفة ، ثم البلح وفوق هذا كله دكر البط المذبوح والحمام ، مزيج من العبق المبثوث ورائحة الخوص المجدول للقفة التى تحتوى . وغطاء من جلباب قديم ، فارق مؤكد بين هذا كله وما أتطلع إليه الآن . أتمناه ، أحاول الوقوف عليه ، تلمسه ، الحوطة باليقين ، لكن . . حتى لو مثل أمامى الآن كل ما أستدعيه بالمخيلة ، فثمة شئ يحول ، ربما انتفاء السياق ، أو انعدام الظرف .

أخشى انقضاء الوقت المتاح . لماذا أبدد ما تبقى - وهو ثمين - فى الإمعان والتفصيل ، تماما كما ضيعت المعاينة ، وتذوق الأمور كافة ، مرة أسبق لأتفحص ما يمكن أن يكون ، ومرة أجتهد لاستعادة مالم يعد كائناً . .

ثمة طعام نرغبه فلابد أن نسافر إليه إذا أردناه مضبوطًا ، سليمًا كما عهدناه ، كما ألفناه ، حكى صاحب عربى أقام فى بلد أوروبى لظروف طارئة حامت حوله أجهزة المخابرات ، سعت إلى تجنيده . لم يطلبوا منه الإبلاغ عن شخص ما ، أو نقل معلومات معينة ، إنما ترجمة ما ينشر من مقالات مهمة بالعربية ، قال للضابط محاورًا . .

«لكن عندكم من يتقن العربية تمامًا . .»

ابتسم الضابط

«هنا مطاعم للطهى الصينى يعمل فيها جنسيات مختلفة ، لكن الوجبات التى أعدها صينى الأصل أعرفها ، أميزها بالأنفاس الخفية . .»

هذا عن طعام معروف ، ذائع ، فما البال بعيشنا الشمسى ، وحليبنا الحامض ، وعسلنا الأسود !

بعد رجعتى إلى موطنى . لزمت ما أمرنى به الطبيب : أن أعتزل لأسبوعين . صحبت أسرتى إلى فندق لطيف ، تطيب إقامتنا فيه ، مطل على البحر الأحمر قرب مدينة الغردقة ولى بهذا المكان صلة قديمة قبل أن يشتهر أمره ويذيع خبره ويقصده الناس من كل الجنسيات للراحة ، واللهو ، وقضاء الأوقات ، وممارسة الرياضات .

نهارًا . . أعكف على التدوين ، أرقب أرتال الموج وأحاول استيعاب زرقة البحر مقارنًا إياها بزرقة أخرى بلورية تبدت لى ولاحت وقت ترجرجى بين الذهاب والمجيئ ، بين العدم والحضور ،

قبل اكتمال إفاقتى ، لكن ليس هذا مجال الإفاضة عنه وتفصيل أحوالى عند مروره بى أو مرورى به ، فالأمر عريض وله تدوين .

لمحت زوجتى قادمة من الشاطئ ، تعبر الرمال الساخنة ، ممسكة بلفافة من ورق تحوى أمرًا . كنا فى أغسطس والموضع جنوبى ، اجتازت الباب مبتهجة .

«أنظر . .»

قالت إنها لمحت فرنًا مبنيًا من الطوب النى ، بالضبط كأفران البيوت فى الصعيد والريف الجوانى ، وامرأة تقوم على الخبيز ، الأجانب يلتقطون الصور لها ، وللأرغفة الغريبة ، بعضهم يكتفى بتذوقها .

«أعرف أنك تتشوق إليه . .»

تنسمت رائحة الخبز الطازج ، المنفوش بلقاح أشعة الشمس للخميرة والطحين ، استنفرت البنات لحيظات مندثرة ، مولية ، انتظرت أنفرادى ، مضغت ما قطمته ، أمتزج بحواسى . غير أننى كنت وحدى .

تساؤلات العسل

من أتم هذا المزيج ؟

من توصل إلى تحقيق الاقتران العجيب ؟

أيهما الأصل ؟ العسل الأسود المخالط لحمرة قانية ، أم الطحينة البيضاء ، عصير السمسم؟ ، فلأبدأ بالعسل لأنه الأقدم فى قائمة مخيالى ، قادم من قصب السكر الجنوبى المتراص ، المتلامس ،

الجدرانى ، فيما بعد عرفت أنواعًا من العسل ، رحيق النحل ، وآخر من التمر ، يُعرف فى أرض السواد بالدبس ، لكنه ثقيل ، لم تقم بينى وبينه صلة ، رغم أنه أسود وعسل ، لكن . . ذلك المستخرج من قصب السكر صار ركنا تنبعث منه المسرة ، ومصدر البهجة .

أفضله ما يحفظ فى بلاليص فخارية ، أغطيتها من مصاصة القصب ، العيدان الجافة المعصورة ، فى صباى رحت أرقب بفضول حذر ، أفريقى ، فاره القامة ، غريب عن البلدة ، لكنه يطوف النجوع ، مرة يبيع العسل ، ومرة البوظة الحلوة أو الخالية من السكر ، طوله مفرد ، نخيلى ، ساطع السواد ، بادى الطيبة ، دائما كأنه على وشك البكاء ، سمعت خالى يقول إنه من آخر بلاد السودان ، جاء ماشيًا لسبب لم يفصح عنه ، يستقر عند أطراف البلاد ، مرة ناحية الجبل ، ومرة ناحية البحر ، عنده أنفة زائدة ، ينحنى ليلتقط البلح المتساقط ، ينفض عنه التراب ويقتات به ، لكنه لا يقبل طعامًا على سبيل صدقة ، له ردة فعل حادة يخشاها من لديه إحاطة .

ما من شئ يُدر لعابى مثل العسل ، عند صبه من البلاص ، وظهور سحابات بيضاء فى احمرار سواده القتيم . إذا ما اقترن بالطحينة ينشأ وضع آخر .

لم أعرفها إلا فى مصر ، عرفت السمسم فى جهينة ، عندما أعبر الحقول بصحبة جدتى أو خالى أو أبى ، منخفض من الأرض ، نبات أخضر غامق ، تنعكس عليه شمس الأصيل ، كثير من المزروعات أتطلع إليها ولا أعرفها ، أجهل هويتها ، عدا السمسم ، والقمح والذرة بنوعيها - العويجة والشامى ، ألفت

السمسم طازجًا . نابتًا من الأرض ، مجففًا فى أجولة مكدسة بالغرفة التى تقع إلى يمين الداخل فى البيت الذى جئت فيه إلى الدنيا ، وهذا له مقام مغاير .

هنا لابد من تدوين خاطرة ، أو نتيجة توصلت إليها ، فالمرء إذ يدنو من الحافة من لحظة اقتراب طرفى الدائرة ، إنما يحن إلى ثلاث ، نساء عرفهن ، وأماكن حلّ بها ، وطعام تذوقه ، أما عن الأكل وهذا موضوع سردى هنا ، فقد تناولت منه أطايب منتقاة . فى مواضع جميلة ، بعضها بحرى وآخر برى ، لكن . . ما ثبت عندى ، وعلق بى ما أذكره هنا ، لما نطق الطبيب المداوى ، بالقول الفصل ، توارى كل ما أعرفه ، وفود توالت على حواسى وذاكرتى ، هكذا بدأ سعيى للارتواء . وإدراك المذاق قبل وقوع التحريم ، وتمام الامتناع ، لم أجد مشقة ، ما تعلقت به ميسور ، هكذا ظننت فى البداية .

أمور تبدو صغيرة ، لكنها تمهيد للأعم والأشمل ، على سبيل المثال اختفت البلاليص بأحجامها الكبيرة والصغيرة ، آخر عهدى بها منذ سبعة عشر عامًا ، كنت ساعيًا لرؤية أمى - رحمها الله - فى مدينة نصر ، عندما لمحت عربة يدفعها صعيدى ، جلبابه أبيض مشوب بصفرة ، نزلت من عربة الأجرة ، لم أستفسر عن مجيئه إلى تلك الضاحية التي كانت صحراوية فى ذلك الحين ، كم مسافة قطع؟ ، كنت فرحاً بالبلاليص الصغيرة ، المرصوصة فوق العربة ، قالت أمى إنها تخشى نوعية العسل ، بالفعل . . وجدته خفيفًا ، أضيف إليه الماء ، مذاقه مغاير . رق قوامه فلا يعلق باللقمة .

أتوق إليه ، إلى لحظة مولية ، أطمح إلى استعادتها ، لايمكنني تعيينها أو تحديدها ، مرتبطة بموضع ما ، مرت بي ومررت بها ، إلى جوهرها ينتمي العسل الذي أعرف والمذاق .

يُباع الآن في أوعية من البلاستيك ، محكمة الإغلاق ، لا بأس ، لكن ينقصه شئ ما . لم أقدر على تحديده ، لكنه المتاح ، فلأ قبل .

رُجعى إلى العيش

أفضل الخبز عندي بعد الشمسي ما يُعرف بالعيش البلدي ، قاهري النشأة والتكوين ، أنواعه ثلاثة ، «المفقَّع» ، «الطري» ، «الملدّن» ، لكن الطري أحسنه خاصة إذا كان طازجًا لم يمض على مفارقته الفرن وقت طويل ، دافئ ، لا أمضغه إنما ألوكه متمهلاً ، متنسمًا اللحظات المولية ، مستبقيا مذاقه قدر استطاعتي فكل طعم عابر ، وعندي بشأن الخبز أحوال وأمور لو أفضت في روايتها لحدت عن القصد ، إذا ساعدني الوقت أفرد لها مؤلفًا ، لكنني أكتفي بذكر ملمح ورواية واقعة .

يمكن لأخس الخلق شأنا أن يغالط أو يختلس أي شئ عدا العيش ، تجيئ الأرغفة من الفرن ، يحصي كل مشتر ما يحتاج إليه . يتقدم من البائع فيذكر العدد ، يدفع النقود ، ما من مرة أقدم الخباز على المراجعة ، كله . . إلا العيش .

جاء إليّ يومًا صاحب حاجة ، يحمل رسالة من زميل قديم ، لم أبادر بالترحيب ، أبديت تحفظًا ، ذلك أنني كنت أمر بانسحاب

وعزوف ، حتى عن ذوى القربى ، مُكْثر من الترحال ، فى داخلى إلى داخلى ، سعيت إلى لقائه متمنياً انقضاء الوقت ، بعد زمن قصير فى المقهى القريب من ميدان القلعة ، مضيت به عبر سوق السلاح القديم ، أبدى ترحيبًا ، بعد خطوات لمح فرنًا ، يعبق برائحة الدقيق واللهب ونضج العجين ، بالخصب والوعد ، أشترى رغيفًا واحدًا فقط ، دافئًا ، لدنًا ، قسمه إلى نصفين .

«ماألذ مضغه بدون غموس . .»

تطلعت إليه مبديًا تعجبًا لم أفصح عنه ، كيف أدرك ذلك وهو الغريب ، ابن الديار البعيدة ؟ كان ذلك مفتتحًا لتحقق القُرْبى .

عَرفْتُ الخبز الفرنسى ، والأوزبكى ، ورقائق الهندى ، والصينى ، والألمانى من دقيق الأرز ، والمكسيكى من الذرة ، لكننى لم أعرف مثل الشمسى الجنوبى والبلدى القاهرى والمرحرح البحرى ، اقتران كل منهم بالملوخية أو العسل الأسود بالطحينة فيه التمام .

وجبة الأمسيات الشحيحة ، أمى ترقبنا راجية شبعنا ، لتطمئن أننا لن نأوى وفى النفوس حاجات كما هى ، فى المعتقل فكرنا فى تنظيم اضراب للسماح لنا بإحضار علب الطحينة ، العسل الأسود ترفيه وحيد ، خبز الفرن طازج ، لكنه يجف بسرعة إذا نزل عليه الليل .

الخبز أساس دائمًا ، له المرجعية ، وبه التمكين أيّاً كان تعدد الأطعمة أو تنوعها ، لا أتقن التعامل مع تلك الأنواع الحديثة ،

المنتفخة ، التى لا يمكن تكويرها أو تشكيلها لتتخذ هيئة الملعقة أو «ودن القطة» لا يتحقق الغموس إلا بها .

فى اليوم التالى لمقابلة الطبيب ، انبعثت رائحة غزيرة القوام تنبئ بغذاء دسم ، فى المطبخ بدت زوجتى مرهقة بالمجهود والبُعد عن الأبناء وطول التوقع . مضت إلى السوق الرئيسى ، اختارت من الأسماك أقربها إلى البلطى النيلى والقاروص البحرى وجمبرى .

لا أرد أبداً طعاماً أجده أمامى . أستمتع بالجيد إذا وُجِد ، لكن لو شح وتعذر فكل مايسد الرمق مقبول ، باعث للرضى . لكننى فوجئت تماما مثلها بما نطقته .

«نفسى فى باذنجان مقلى . .»

لم تبد دهشة ، إنها مدركة ، واعية بالظرف ، لكنها لا تخوض فيه ، لا تستفسر ، كأن كافة مايبدو عادى ، تماماً مثل أيامنا الأولى السابقة على ظهور الأوجاع ، والعكمات ، وسلسال الفحوص ، قالت إنه شحيح الآن ، لكنها سترى غدًا .

غدًا ؟

تتوالى الأيام بسرعة ، ما بين توصيف الطبيب ونصيحته والمدى المقرر ، أقبلت على السمك البلطى ، المقلى بالزيت والليمون ، المتبل إلى حد التشبع بالكمون والثوم المهروس وقليل من الكزبرة . بعد تمام الأربعين لن أقربه إلا بقدر وفى حالة واحدة فقط ، أن يكون مشويًا ، المقلى أقرب عندى ، إنه ما به منذ طفولتى وأيامى النائية فى الصعيد ، للمذاقات الأولى متانة المرجعيات . توارى

كافة ما عرفته فى أسفارى ، سمك بالفاكهة ، بالمايونيز ، مغموس فى الثلج ، لهذا تفصيل يطول ولكن الأمر عندى مرتبط بالسمك النيلى ، البلطى والقراميط تحديدًا .

أستعيد الرحبة ما بين البيوت ، عند وصول صياد يحمل قفة يطل منها أوراق شجر عريض ، فى قاعها أسماك قاتمة ، ذات شوارب ، تبلعط حية . اللحوم لها شأن فى الأسواق أو البيوت ، لكن الأسماك قليلة ، ولايقبل القوم عليها . لايعنى ذلك انقطاعهم عنها ، أتقنت أمى إعداد السمك وقليه ، خاصة البلطى ، أما القراميط فلكم أثارتنى بقدرتها على مصارعة الهلاك الماثل فى الفراغ بعد مفارقتها الماء ، تتلوى تقفز إلى أعلى ، خاصة عند دنو سكين القطع والسلخ .

عند عودتى من المدرسة ، أثناء طلوعى الدرج أشم الرائحة ، أسرع ، أرتقى اثنين ، اثنين . كنت عفيًا ، مقبلاً غير مول ، والقلب منى تام ، لم يجرح بعد ، كنت متمكنًا غير مدرك لمجئ يوم يصعب علىّ ارتقاء مثله حتى مع التمهل .

«أمى تقلى سمكاً»

كان يومًا استثنائيًا . أجلس إلى جوارها متعجلاً ، متطلعًا إلى القطع أثناء تفرفرها بالزيت ، حتى استواء جلد البطن وتقدده متخذًا لونًا كهرمانيًا ، تلتقطها أمى بالمصفاة ، تضعها فى صينية مستديرة من نحاس ، يخلو القرموط من الأشواك . سمك نيلى ، قديم ، رأيته على جدران مقبرة مريكاورع فى سقارة . قرأت مؤخرًا أنه ينقرض من النيل بسبب التلوث ، وإلقاء المصانع والسفن

الفندقية مخلفاتها فى المياه العذبة . منذ سنوات ألح علىّ مذاقه فسعيت حتى وجدته فى حلقة صيادين قريبة من الفسطاط ، قال لى صياد شيخ أن ما يأتى منه قليل ، وأنه سيلحق قريبًا بأصناف لم يعد لها أثر .

بذلت زوجتى جهدًا غير هين فى تقطيعه وغمسه فى الكمون المعتاد والثوم المؤصل ، لكن المذاق بدا مغايرًا . مختلفًا ، لم أصرح لها ، إنما أبديت الاستحسان وإن بدا عليها مس من ريبة ، لم أقل لها إن المذاق مجرد تلمس وسيلة للإحاطة بحقبة ، لها أركانها ودقائقها .

لن أتعجل ما بدأت أعيه مع انقضاء المدة وتقلص الفترة ، لكل نزوع أساس ، ما من رغبة تتجسد من فراغ ، إنما يبدأ سريانها من نقطة هناك ، لها حضور حتى وإن لم تدركها الأنظار إلا بعد جهد وإمعان .

فى أمسيات الصفا ، كان الوالد – رحمه الله – يعطينى شلنًا ، قطعة معدنية بخمسة قروش ، يطلب منى المضى إلى عم على السماك ، يقع دكانه على ناصية حارة المُرلى ، مجاور لدكان الحاج دياب تاجر الورق ، الدكان أزرق الواجهة ، مصطبة مغطاة بمعدن الزنك ، يُصف فوقها السمك المقلى أو المشوى الجاهز ، بلطى ، مكرونة ، ثعابين ، قشر بياض وجمبرى . أنطق بما أوصانى أبى به .

«بشلن سمك مخصوص ياعم على . .»

مخصوص يعنى تجهيزه وقَلْيه أمام الزبون ، أتطلع ، بعد استخراج القطع ، يلف السمك فى ورق أبيض من مخلفات طباعة

الصحف ، من الجمبرى الصغير المكوم فى الركن يتناول ملء قبضة يد ، يضعه قبل إحكام اللفة ، جمبرى صغير ، مقلى ، طعمه باق عندى ، لم يكن بُغية أو هدفًا فى حد ذاته ، بل إضافة ، تبدل الأمر مع الزمن صار كبير الحجم منه دليلاً على القدرة ، يتجاوز سعر الكيلو مرتب شهرين لخريج جامعى . لا أتقبله ، خاصة بعد علمى أنهم يطعموه عليقًا صناعيًا لينمو فى مزارع مغلقة .

أستعدت المذاق القديم فى مكان قصى ، بعيد ، لن أبلغه مرة أخرى ، ذلك أن كثيراً من الأماكن لا أفكر فيها الآن باعتبارها مواضع سأعرفها يومًا ، لكنها بقاع بلغتها أو لن أصل إليها . عند حد معين تصير كل الأمكنة إلى صور مجردة . إلى فكرة ، مجرد نثار للوقت ، أسماء وإشارات ، يتساوى الأمر عند التذكر أو التخيل ، بل يحدث أحيانًا أن تفد علىّ أماكن لم أعرفها ، لم أطأها ، تلح علىّ مع أنى لم أحط منها بطرف ، ولا وجود لها . وهذا مما يطول الحديث فيه ، لو أتيح لى الوقت وآزرتنى الأنفاس فسأروى ما عَنّ لى .

أقول إننى كنت فى صنعاء اليمن عام ثمانية وثمانين ، عندما خرجنا ليلاً إلى المدينة العتيقة ، بعد اجتيازى الباب القبلى فوجئت بالرائحة ، تماماً كأنى فى عطفة المرلى ، أنتظر الفراغ من إعداد المخصوص . فاض بى المذاق وفضت به ، لم أعبأ بالزفر الذى علق بأصابعى ، أو دهشة صاحبى ، لم أفسر .

هذه الليلة خفت حمولى ، وطال شرحى لأمور أجهلها ولم ألم بها ، أبديت الود حتى لمن لا أعرف ، فى اليوم التالى منيت الحال

بشراء مُنزل ، سعيت ، عبرت البوابة المعتقة ، لكننى عبثًا كنت أحاول تنسم الشذا ، أشهرت حواسى كافة ، لكننى لم أنل إلا خسرانًا مبينًا . .

تمهيد للجبن

ألح علىّ هاجس الوجبة الختامية ، آخر ما سأتذوقه وأمتنع بعده ، لكننى لم أستجب ، شغلتنى الثنائيات ، وانتهى أمرى إلى الجبن ، ما أقصده صنف يقترن بآخر ، فإذا استدعيت مذاق أحدهما ينبغى الثانى ، ثم يستويان ، ومن ذلك الباذنجان والبطاطس المقلى . لاشئ عندى يعلو على الباذنجان بكافة أنواعه ، الأبيض والأسود ، الرومى والبلدى ، المستدير والمستطيل ، قلت مبتسمًا

«حان وقت الباذنجان المقلى المغموس بالثوم . .»

الحق أنها لم تقصر ، كثيرًا ما رمقتنى صامتة ، متسائلة بالنظر عما أرغبه ، لم تجادلنى ، إنما تبدى الدهشة فحسب ، خاصة بعد خذلانى لبرنامجها الذى تأهبت لتنفيذه ويحوى الدجاج والبط والكبد والقوانص والطواجن ، كانت تسترجع ما أبديت إعجابى به خلال أسفارنا وإجازاتنا وساعات صفونا ، لكننى أفاجئها بما لم تتوقعه فتتقدم على بذل الهمة .

لماذا البطاطس صنو الباذنجان ؟

فى الأيام التى تخلو من اللحم ، تخرج أمى إلى إسماعيل الخضرى ، تشترى كيلو من هذا وآخر من تلك ، الباذنجان وقع

اسـمـه مـذكـر ، والبطاطس مـؤنث ، كـلاهمـا لذيذ المذاق على أى وجه ، بعد تقشير الثمرات وتقطيعها إلى شرائح ، كنت ألتهم قطع الباذنجان نية ، وبعد خروجها من الطاسة مقلية بالزيت ، أما إذا تيسر الأمر وتوفر الطماطم مع اللحم المفروم وبالتالى تحدث «المسقعة» فيكتمل الهناء كله ، الباذنجان يسيل لُعابى إذا ما تحدث عنه أحد ، إنه الثمرة الوحيدة التى تُدر مائى .

تبدو شرائح البطاطس المقلية أقرب إلى الحلوى مع أنها تخلو تماماً من السكر ، إذا غُمس كلاهما فى الثوم يتفرد المذاق ، عندما بدأت الأيام العشرة الأخيرة ، أكثرت منهما ، لايمكن الاقتراب من الزيت بعد تمام المدة ، ولكننى فى هذه الفترة استعدت معرفتى بالجبن الأبيض ومنه وفد علىّ مالم أتوقع .

أبيـــــض

الجبن أنواع ، قبل بدء أسفارى إلى مواضع أخرى من الدنيا لم أعرف إلا الجبن الأبيض (الاسطامبولى فى الأغلب) والقريش المضلع ، والمعتق فى بلاليص الفخار ، المغموس فى المش ، وجبن آخر أفرنجى معروف بين القوم بالرومى ، ومنه نوع على هيئة كرات حمراء ، الغطاء ، صفراء القلب ، يُطلق عليه الفلامنك ، ربما لوروده من هولنده .

لو فصلت ما عرفته فى جبال الكرد ، أو مدن آسيا ، أو الديار الفرنسية ، لتنوعت الأوصاف وتكاثرت الأنواع ، لكننى أوجز فأقول إن هذا كله لم يعلق منه عندى إلا الجبن الأبيض البراميلى ، أى المحفوظ فى براميل خشبية ، وتختص بصنعه ناحية دمياط ، يليق

به العيش البلدى بأنواعه الثلاثة ، قطعة صغيرة جدًا تحتويها لقمة لا بأس بها تحدث مذاقًا كثيفًا ، الجبن مركز ، كثيف ، لونه الأبيض مغاير لكل الأجسام والمواد التى يحل بها البياض ، بياض الجبن مستقر ، راسخ ، طويل العمق ، إذا ذكرت الجبن فلابد أن يعقبه الحلاوة الطحينية ، تقترن به تماماً مثل ازدواجية الباذنجان والبطاطس . ربما لتناولى قطعة منها بعد الجبن ، فى اليوم السابع والعشرين أكلت رغيفًا طريًا بقطعة لا بأس بها من الحلاوة ، أعرف أننى لن أقربها بعد الأربعين . الحلاوة ثرية . إنها طحين السمسم والزيت ، لذلك يقول الناس لمن يتهددهم السجن ، «حنجيبلك عيش وحلاوة» ، خبرت هذا وعرفت توق النفس إلى الحلو مع اختلال الغذاء وندرة الجيد منه ، ولى فى العسل الأسود عبرة .

لا الحلاوة أو العسل ، لكننى سأستمر مع الجبن ويطول أمره معى ، لم أرجئ إنما تناولت عشائى فى اليوم التاسع والعشرين قطعة من الجبن الأبيض ، المعتق برغيف بلدى طرى ، كأننى أكتشفه من جديد ، مضغت ببطء ، أدهشنى مزيج الخبز بالمذاق المالح ، استغرقنى أمره ، فى اليوم التالى ، وضعت القطعة على طبق ، بيضاء ، مغرية ، جاذبة ، تمهلت متمنياً ألا ينفد الرغيف ، ألا ينقضى ، أبدت زوجتى دهشتها فى اليوم الثالث عندما رغبت الجبن ، تطلعت صامتة ، إنها تلبى لكنها تستفسر أيضاً ، مرة بالنطق وأحيانًا بالصمت ، فهمت ما تود الإفضاء به ، الأيام تمر وأضيع الفرص ، أليس من الأجدى الاستمتاع بوجبة لن أقدر على الاقتراب منها بعد تمام الأربعين؟ لم أستطع أن أشرح .

الآن أبدأ بالخبز الطرى الطازج ، نصف رغيف ، أثنى بآخر مفقع ، أكثر صلابة ، كسرة منه تشطف الجبن بحدة السكين ، عند لحظة معينة طرقت هذا التحول فى المذاق ، عندما تغير المالح تدريجياً أثناء المضغ إلى النقيض ، الحلو ، حلاوة طحينية محشوة باللوز المبشور ، عند لحيظة أخرى يتحول المذاق إلى ما أرغب ، فمرة بصل مقلى فى الزبدة مع شرائح لحم رقيقة ومرة قطع جمبرى مغروسة فى طبق أرز اتخذ لونًا ورديًا بعد امتزاجه بعصير الطماطم والأعشاب المكسبة للنكهة ، ومرة أتلمس غزارة وطراوة الفطير المشلتت المغموس فى القشدة الصابحة التى لم تخبو رغوتها بعد . ومرة بعد أخرى أستقطر مذاق قطع الباذنجان الساخنة التى كنت ألتهمها طفلاً إذ أجلس إلى جوار أمى وهى تقلب الزيت فوق النار ، وتعدل وضع القطع فى طاسة القلى لتتم التسوية ويصبح الأمر من خلال بياض الجبن . .


مَشْى

خرجت من باب الفندق متنسمًا ، مشرعًا لتلقى كل آت ، تائقًا للملامح المألوفة والمجهولة عندى ، كل ما تدركه حواسى حميم ، مألوف وإن جهلت بعضه ، أو استعصت علىّ التفاسير ، المكان هادئ ، الهواء جاف رغم قربه من حافة البحيرة ، عند الناصية القريبة درت مع البنايات القديمة نسبيًا ، رأيت عمارات المشروع كما يسميها العاملون وسكان الناحية ، أرض خلاء منذ زمن قديم ، لم يقدر أحد على الحفر فيها أو دق الأساس لأى بناية لاحتوائها كما قيل على آثار قديمة تمت إلى العصر الحجرى ، ما قبل عصر الأسرات وحتى الآن توجد لافتة واضحة لكل عابر تحذر من الاقتراب لتبعية المنطقة لهيئة الآثار . غير أن نفوذ الشركة التى أسسها عدد من الشخصيات المتنفذة كان أنجع وأقوى ، خططوا وأقاموا الأسوار ، ونظموا حملة إعلانية ، وسووا أمورهم مع الهيئات التنفيذية ، أطلقوا أيديهم وخلال عامين ظهرت تلك المنطقة الحديثة ، المقسمة بعناية ، بيوت ذات ارتفاعات متساوية ، خمسة طوابق لكل منها ، مداخلها فسيحة تتقدمها حدائق صغيرة ، تنافس السكان فيما بينهم فبثوا الشجيرات وتعهدوا الزهور حتى تعجب السكان القدامى وأقدموا على التجول فى الشوارع المتوازية المتقاطعة بحذر .

المشروع مشيد باستطالة ، ثمة شارع رئيسى يتخلل الناحية ويصل إلى حافة أرض خلاء تقع إلى الغرب ماتزال مسورة ، ولم يقطع أحد بوضعها ، قال موظف الاستقبال فى الفندق أنها تضم جزءاً من غابة متحجرة وُضعت تحت حماية اليونسكو مباشرة ،

وقال من يأتينى بطعام الإفطار إنها ملك لرجل قوى النفوذ ، شديد البطش ، متمكن ، لكنه مشغول ، يظهر دائمًا فى التليفزيون ، يبدو متجهمًا ، ينوء بأثقال المسئولية . الأرض مسورة بأسلاك شائكة ، تقع ناحية الغرب ، تتناثر عبرها نباتات عشوائية بعضها يشبه الصبار ، والآخر أجهله ، تتدرج فى النزول حتى تختفى قرب البحيرة وتتيح بذلك رؤية الخلاء الأجدب الممتد إلى الغرب .

لم أكن بحاجة إلى العصا ، لكننى أمسكت بها امتدادًا للعادة التى استمرت أكثر من شهرين ، إضافة إلى خشيتى وقوع الدوار المفاجئ ، أو اقتراب كلب ضال ، الخلاء المحيط فسيح ، قصى غربًا وشرقًا حيث الجبال التى تحوى محاجر الجير وأنواعًا من الرخام الأبيض النادر ، لم أصحب زوجتى التى أبدت قلقاً ، لكننى امتثلت تمامًا لنصائح الطبيب . قال إن المشى يجب أن يتم بمفردى ، الحديث خلاله يكلف مجهودًا إضافيًا لا داعى له ، يرهق القلب طرى الجراح ، مازلت فى حاجة إلى دربة واعتياد على الخطو .

أبدأ متمهلاً ، معظم المرحلة الأولى هادئ ، كأنى أمضى إلى موعد مازال بينى وبينه فسحة كافية ، أرتب أمورى . أحاول استيعاب الملامح ، من الأفضل أن يتعرف الإنسان على الأرض التى يخطو فوقها ، معالمها ، المبانى المميزة ، تتسرب إليه خاصية الموضع ، يندمج شيئاً فشيئًا ، أثار المشروع إعجابى ، واجهات جميلة تبدو متشابهة لأول نظرة ، لكن مع شئ من التدقيق يمكن ملاحظة الفروق الأساسية فى التصميم ، إضافة إلى ما أحدثه السكان من تعديلات ، لكنها فى الحقيقة غير مخلة ، ثمة التزام جماعى يندر أن

يُلحظ مثله فى مواقع مماثلة ، الهواء شفاف ، مغاير لما يبدو عليه فى الطريق الموازى الذى يطل الفندق عليه ، الحدائق الصغيرة منسقة ، هادئة ، تتنوع أشجارها حديثة الغرس ، وأزهارها ، بعضها متفتح رغم برودة تلك الأيام من السنة ، معظم الأبواب الرئيسية من زجاج مؤطر بالمعدن القوى ، الصلب ، يتخلل المبانى مساحات من فراغ ، بعضها شبه مستطيل ، لكنه لا يمضى فى مستوى واحد متصل ، إنما تنزل به درجتين أو ثلاث ، ثم يستقيم ، ثمة مساحات مربعة أو مستطيلة تطل عليها النوافذ والشرفات الخلفية .

أرجوحة أطفال بيضاء اللون ، أماكن انتظار العربات محددة ، منخفضة قليلاً عن مستوى الطريق ، المداخل المؤدية جيدة الرصف ، ثمة نسمات هادئة لم أستطع تحديد مصدرها تمامًا لكنها بثت عندى هدوءاً وامتناناً غامضًا لكثيرين تتداخل ملامحهم ، كل من أسهم بقدر فى وصولى إلى هذه اللحظات ، وذلك المكان ، كنت تواقاً إلى الخطو ، إلى السعى ، إلى التوثب غير أننى أكبح فتتبدل التعابير على ملامحى ، أصل إلى نهاية الطريق . تنثنى استقامته مع سور الحديقة التى تحيط البناية الأخيرة من ثلاث جهات . تشرف على الأرض المسورة ، أرى انطلاقة الفراغ ، الشمس المكتملة ، الوهاجة ، أحاول التحديق لجزء من الثانية غير أننى أرتد على الفور . يعشينى الضوء ، أحيد صوب زرقة السماء الصافية تماماً ، تقترن باللون اللازوردى الذى مررت به أثناء إفاقتى ، مع عبورى مراحل الوفادة الأتم ، أنسبه إلى درجات الأزرق تجاوزًا . ذلك أننى لم أعرف له مثيلاً . ليس له مرجعية ، حتى ولا تلك الدرجات اللونية المنبسطة ، الحاوية .

أستدير إلى الطريق الموازى ، ألاحظ بعض المطبات الصناعية ، لابد منها للحد من سرعة المندفعين أثناء القيادة ، خاصة من الفتيان ، المكان لاتوجد به نقاط مرور ، بل إنه خلو من أى شرطى ، هكذا شأن المناطق الجديدة فى البداية ثم يفد الضباط والجنود فيما بعد ، تبدو تفاصيل البنايات مغايرة ، لابد أنه نموذج آخر ، تختلف المساحات الداخلية ، ولكن العناية بادية ، وعين النظافة سارية ، حافظت على معدل توالى خطواتى ، عند نهاية الطريق ومع بدء عودتى إلى الموازى سأزيد قليلاً ، يمكننى الآن تحديد الوقت الذى تستغرقه لفة كاملة حول المشروع ، مهما أقدمت فإن حذرًا خفيًا يبطئ حركتى ، لكن تعرفى الكامل على الموقع سيجعلنى أكثر جرأة ، رغم خلو النوافذ والشرفات من أى شخص ، غير أن وجودهم بالداخل مدرك ، ثمة حضور يضفيه البشر على البنايات حتى وإن لم يظهروا للمارة أو المتطلعين من الخارج ، الستائر المسدلة ، أصداء الضجة الخافتة ، ذبذبات الحركة ، حتى سكون القوم وهجوعهم يبدو من خلال النوافذ الموصدة والجدران الصماء . كل ما أرى يبدو مناسبًا وموائمًا ، مع تعاظم الزحام وزيادة التلوث فى العاصمة المكتظة كان صعبًا أن أجد المكان الملائم لتلك الفترة التى يجب أن أعبرها بدقة وبغير حيدة عما قرره الطبيب المعالج .

موسيقى تنبعث من مكان ما . لا أقدر على تحديده ولكن العزف يبدو منبعثاً من داخل إحدى شقق تلك البناية القريبة من الخلاء الموازى .

تعثر النغمات ، أعادتها ، يعنى التدريب ، ربما بداية أو مجاهدة ، كلاهما مثير للحنين ، باعث لصور غامضة ، حدوث النقطة التى

بدأت عندها أصغى إلى الأنغام ، يحتاج سماع الموسيقى منى إلى تركيز يقتضى الانقطاع والتفرغ ، تماماً كالقراءة . نصحنى الأصدقاء بوضع سماعتى جهاز تسجيل صغير ، أقطع بهما ملل المسافة ، كنت أتأمل تلك البنية التى تدخل فى نفس توقيتى إلى غرفة العلاج الطبيعى ، تتخذ موقعها فوق آلة السير ، تبدو مستغرقة تماماً ، عندما أصغت إلى الطبيب فى اليوم السابق على سفرى يتمنى لى طيب الرحلة ، فوجئت بانفعالها المفاجئ ، تهلل ملامحها ، ابتسامتها المشمسة .

«تعود غداً إلى الوطن . .»

«نعم . . أصل بعد غد فى الرابعة والنصف . .»

هزت رأسها مرات .

«رائع . . رائع . . حظ طيب . .»

لم نتبادل كلمة واحدة حتى ذلك الحين ، كأن أمرها كله متعلق بى . لوحت بيدها ، ودعتنى حتى خروجى من الغرفة ، ومثلت ملامحها عندى إلى الأبد ، كانت ترتدى قميصاً أزرق تتداخل به نقوش بيضاء ، الزى الموحد للرجال وللنساء هنا فى الطابق العاشر حيث يقضى المرضى الأيام العلاجية بعد صعودهم من غرفة الرعاية المركزة فى الطابق السابع . أستعيدها فى هذه المنطقة النائية بامتنان وفضول كُلّى ، ما اسمها ؟ أين هى الآن ؟ أتجاوز الناصية المؤدية الى الفندق حيث أقيم . إنها المرة الثانية التى أخطو عبر هذا الطريق ، لكن . .

هل رأيت هذا البناء؟ هل كان قائماً هنا ؟

سور يحيط بحديقة تطل منها بعض الأشجار ، قدرت إعادة غرسها ، إلا إذا كانت من الأنواع سريعة النمو ، مبنى من ثلاثة طوابق ، مستطيل . كيف لم ألحظه ؟

يتوسط السور باب من حديد ، لافتة فوقه ، المدرسة الفندقية الخاصة ، لا ألمح أحداً ، أسرع الخطى ، فلأحاول الحفاظ على الإيقاع ، إذا لاح أرهاق أتمهل ، إذا استمر أتوقف على الفور . كافة التعليمات ماثلة ، تقف امرأة شابة فى شرفة بالطابق الأول ، كيف أبدو لها ؟ ، لا يعلق بصرى بها إلا جزءاً من الثانية ، أقترب من نهاية البيوت ، المنحنى ، الأرض المسورة التابعة لهيئة الآثار .

أتمهل مضطرًا ، السماء رمادية أو هكذا تبدو ، تغيرت درجة الضوء ، الأفق أنأى ، والمبانى التى كانت تبدو متقاربة الآن متباعدة ، غيوم وافدة ، عالقة ، متوسطة الارتفاع ، متفرقة ، تميل الشمس إلى الغرب ، لايقتصر تأثير الضوء على إيضاح انكسار النهار واقتراب العصر ، لكنه طال سائر المرئيات ، كأنى أسعى فى منطقة أخرى مغايرة لتلك التى عبرتها منذ فترة قصيرة ، كافة الواجهات تغيرت ، غمرتها ظلال غامقة ، دخل على حضورها شئ ، كما أتخذت هيئتها وضعًا مترقبًا ، هل أضفى حالتى على الموجودات ؟

ربما . .

الموسيقى مجهولة المصدر .

أستعيد لحظات جد بعيدة، عندما كنت أقطع وسط المدينة وحيدًا فى أيام العطلات قاصدًا المقهى بعد الظهر، انبعاث موسيقى هادئة، دثرتها الستائر والأبواب الموصدة، لكننى قادر على تحديد موقعها وقتئذ، كانت تسرى من داخل كنيسة، مدخلها شاهق، جدرانها من حجر، تتبع طائفة مقرها بلد أوروبى. مازلت أحتفظ باللحن وما يستدعيه، أما الواجهات فترسل عندى أسى وحنينا إلى أزمته لم أعشها أو لم أمر بها بعد، هذا مغاير لما عرفته خلال العام الأخير، ماتزال نظرتى وداعية، ومثولى ملوح لكافة ماأراه. إذا نزلت مكاناً يداخلنى يقين إنها المرة الأخيرة، وإذا مررت بلحظة يشى فيها القلب بتجاوبه، أصغى إلى دقاته الواهنة، لكم تعثرت وبدلت من إيقاعاتها فى الأيام التالية للعملية، قالت صاحبتى

«حاول أن تنسى ذلك . .»

بتلقائية أجبت

«لا أستطيع . .»

مع بلوغى الحد الشرقى للمشروع أبتسم، بالتأكيد أنا أفضل حالاً الآن، أتوثب، بل إننى على وشك أن أبلغ حد الجرى، لكن أحاول الاحتفاظ بالإيقاع الذى بلغته، ألا أستجيب للإغراءات الطارئة، بعد بلوغى الحد الغربى أتدرج فى التمهل حتى أبلغ ما بدأت به، قطعت المكان الآن مرتين، أبدأ الثالثة بالانحدار غربًا، فعلا . . لم يكن اختيار الطبيب لهذه المدينة مجردًا، الهواء مغاير،

فيه طزاجة ، من المهم المشى فى فراغ نقى ، ترتفع نسبة التلوث فى القاهرة ، يصبح المشى مجهدًا ، مرهقًا .

هنا يمكن أن تطول المسافة ولا تقتضى مجهودًا ملحوظًا ، بعض النوافذ مفتوحة ، نساء يقفن فى الشرفات ، عددهن ملحوظ ، يجرى شاب طويل وإلى جواره كلب ضخم مشدود إليه برباط وثيق ، أتمهل لحيظة ثم أستأنف ، أخشى الكلاب ، (المدرسة الفندقية) ، إذن لم ألحظها فى المرة الأولى ، لكن الباب مفتوح ، أمامه يجلس حارس يرتدى جلبابًا وعمامة ، إنه خفير ينظر إلى نقطة ما ، لم يتطلع إلىّ رغم ندرة المارة .

سأنتبه هذه المرة إلى المعالم البارزة التى لايمكن أن تتغير فى وقت يسير ، رغم أن المبانى تبدو فى عمومها متشابهة لكن مع التدقيق يمكن ملاحظة بعض الفروق . وربما كان الأمر مختلفًا تمامًا من الداخل ، لاحظت مثلاً أن المداخل لا تتشابه ، لكل منها وضعه فى مواجهة فراغ الطريق ، الممرات المؤدية بلاطها مختلف واتساعاتها مغايرة . لايمكن تحديد تلك اللحظة التى تمثل فجأة من الذاكرة . يصعب تحديد أسم اليوم . أو السنة حتى ، لكن درجة الضوء ناصعة ، ومياه النافورة بيضاء ، تتدفق بترتيب محكم منسابة ، ميدان الأوبرا القديم ، بالتأكيد . . يوم جمعة . من يدرى؟ ربما . .

أقترب للمرة الثالثة من نهاية الطريق عند الحد الغربى . أستدير إلى الاتجاه الجنوبى . عند بلوغى الناحية الموازية يجب أن أهدئ

خطاى ، تقدمى يجب أن يكون أقل اندفاعاً ، يستحسن أن يستمر المشى لدورة أخرى ، وألا أضطر إلى توقف مفاجئ ، غير أننى أتمهل قبل بلوغى الناحية الأخرى . من هنا يمكن رؤية انطلاقة السماء ، متابعتها فى امتدادها ، كأن غيمة ضخمة حجبت الضوء مرة واحدة ، مع أن السماء خلو تماماً حتى من الغيوم الصغيرة . غمق النهار حتى لم أعد قادرًا على رؤية الأفق الذى اندمج بالأرض ، وحدتها العتمة ، أدراكى لوجود السور الذى يمد أرض الآثار أكثر من قدرتى على تمييزه ، ما يدهشنى عدم الاتساق بين ما أقطعه من وقت خلال الدورة الواحدة ، وما يحدث من تغيير فى الوقت ، ماذا يجرى ، وأى إيقاع يحكم هذه المنطقة ، أعرف المكان إلى حد ما ، بدأت أضواء خافتة تلوح من وراء النوافذ ، لكن ما تزال مصابيح الطريق مطفأة ، كنت مضطرًا إلى التمهل ، التطلع إلى الأرض خشية الانزلاق من فوق الرصيف ، أو حفر مفاجئة ، بدلاً من النظر إلى الواجهات ، ومحاولة تخيل مايجرى من حيوات وراء تلك الجدران ، تأثرى بوقفة أنثى تنظر إلى اتجاه غير محدد .

تهرع دقات قلبى ، أبطئ فيركض النبض ، وينالنى وهن غامض ، أصعب ما يفضنى آلام غير معتادة ، لكل جسد قاموس مواجعه ، أما المفاجئ منها فمثير للخشية ، أُغلقت المداخل ، ولاح الفراغ شتويًا مع أننا لم نبلغه بعد ، مازالت أيامه بعيدة ، لم أكن قادرًا على التحديد . .

١٩٩٨ - ١٩٩٩

صدر للمؤلف

١ ـ «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ـ مجموعة قصصية .
٢ ـ «أرض ـ أرض» ـ مجموعة قصصية .
٣ ـ «لزويل» ـ قصة طويلة .
٤ ـ «الزينى بركات» ـ رواية .
٥ ـ «وقائع حارة الزعفرانى» ـ رواية .
٦ ـ «الحصار من ثلاث جهات» ـ مجموعة قصصية .
٧ ـ «حكايات الغريب» ـ مجموعة قصصية .
٨ ـ «ذكر ما جرى» ـ مجموعة قصصية .
٩ ـ «الرفاعى» .
١٠ ـ «خطط الغيطانى» .
١١ ـ «كتاب التجليات» رواية .

● السفر الأول ١٩٨٣ .
● السفر الثانى ١٩٨٥ .
● السفر الثالث ١٩٨٧ .

صدرت الأسفار الثلاثة فى مجلد واحد ـ القاهرة ١٩٩٠ ـ طبعة ثانية .

١٢ ـ «اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان» ـ مجموعة قصصية .
١٣ ـ «رسالة فى الصبابة والوجد» ـ رواية .
١٤ ـ «رسالة البصائر فى المصائر» ـ رواية .
١٥ ـ «شطح المدينة» ـ رواية .

١٦ ـ «هاتف المغيب» ـ رواية .
١٧ ـ «ثمار الوقت» ـ مجموعة قصصية .
١٨ ـ «نفثة مصدور» ـ مجموعة قصصية .
١٩ ـ «من دفتر العشق والغربة» ـ قصص .
٢٠ ـ «متون الأهرام» ـ رواية .
٢١ ـ «خُلسات السِّرى» ـ من دفاتر التدوين(١) ـ رواية .
٢٢ ـ «حكايات المؤسسة» ـ رواية .
٢٣ ـ «سفر البنيان» ـ رواية .
٢٤ ـ «مطربة الغروب» ـ مجموعة قصصية .
٢٥ ـ «يوميات القلب المفتوح» ـ سيرة .
٢٦ ـ «دفاتر التدوين (٢)» ـ دنافندلى .

أدب رحلات:

- «أسفار المشتاق» .
- «أسفار الأسفار» .

مختارات قصصية:

- «منتصف ليل الغربة» .
- «أحراش المدينة» .

مشاهدات ودراسات:

- «المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر» .
- «حراس البوابة الشرقية ـ الجيش العراقى فى حرب أكتوبر» .
- «نجيب محفوظ يتذكر» .
- «مصطفى أمين يتذكر» .
- «ملامح القاهرة فى ألف عام» .
- «أسبلة القاهرة» .

- «حمام الحمى - يوميات» .
- يومياتى المعلنة - يوميات» .
- «قوت العيون» ـ يوميات (٣)
- «الجهات الأربع» ـ يوميات (٤)
- «منتهى الطلب إلى تراث العرب» ـ دراسات فى التراث .
- «إبراء الذمة» .

تقديم لكتب تراثية:

- مقامات بديع الزمان الهمذانى .
- الشاهنامه للفردوسى .

جوائز:

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية لعام ١٩٨٠ .

(وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى)

- وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧ .
- جائزة الصداقة العربية ـ الفرنسية ، لرواية «رسالة البصائر فى المصائر» لعام ١٩٩٤ .

ندوات ومؤتمرات:

شارك فى مؤتمرات دولية أدبية فى العالم العربى وأوروبا وأمريكا اللاتينية .

الفهرس

مقاربة الأبد

ماذا يمكن أن يجول بإنسان يدرك أنه مقترب من الحافة التى تفصل بين الأمد والأبد ، بين ما كان وما لن يكون ؟

ماذا تحوى تلك اللحظات الحادة التى تتوهج فيها الذاكرة ، فترى كل ما لم تره فى حينه ، عندما تكتسب دقائق الموجودات قيمة ودلالات لا ينتبه إليها من يقفون بمنأى .

من خلال هذه اللحظات الثمينة ، النادرة ، ينسج جمال الغيطانى هذه القصص القصيرة التى تشكل فى مجموعها تجارب نادرة ، بقدر تجسيدها للتفاصيل ، بقدر إبرازها للكليات الكامنة فى حقائق الحياة ، من قوة وإدراك ، من ميلاد وموت ، من إقامة ورحيل ، مكاشفة إنسانية لا تكون إلا لمن يقارب حافة الأ



